موسوعة العقيدة والأديان

علاء الخضري

٢

العقيدة الإسلاميّة
في مواجهة التيارات الإلحادية

د. فرج الله عبد الباري

أستاذ العقيدة والأديان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم...

وبعد:

إن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من أهم الواجبات التي يجب على العاقل أن يعلمها، ويهتم بها، ولذلك وجب على العلماء والباحثين أن يهتموا ببيان حقيقة أركان الإيمان التي لا يتحقق لأحدٍ النجاة في الآخرة ولا السعادة في الدنيا، إلا إذا أيقن بها وعمل بمقتضاها.

ولما رأيت الحاجة ماسة لبيان تلك الأركان عقدت العزم وتوكلت على الله، لبحث هذه الأركان بحثا علميًا يجمع بين العمق، واليسر.

فعرفت في البداية معنى العقيدة لغة واصطلاحًا وأهميتها ومدى الحاجة إليها، ثم بينت الأسماء التي تطلق على العقيدة، كالإيمان، وعلم التوحيد، وعلم أصول الدين، وعلم الفقه الأكبر.

ومن أجل التركيز على المنهج القرآني في دراسة مسائل العقيدة، درست بعض مسائل العقيدة وكيف كان فهم الصحابة لها، بعد بيان الرسول ﷺ لهم وانتهيت إلى أن صحابة النبي ﷺ ما كانوا يتكلفون فهم الأمور على غير مرادها، وكان لسان حالهم بعد أن يقرءوا آيات القرآن التي فيها أسماء الله وصفاته، أو بعض الآيات التي توهم التشبيه أن يقولوا سمعنا وأطعنا.

ولكن بعد عهد رسول الله ﷺ وفي آخر عهد الخلفاء الراشدين بدأت بعض الفرق تظهر وبرزت رؤوس مسائل عقدية كان الاختلاف حولها، الأمر

الذي أدى إلى ظهور ما يعرف بعلم الكلام بمسائله وقضاياه ولقد رصدت بعضًا من هذه الاختلافات، وانتهيت إلى أنه كلما بعد العهد عن رسول الله ﷺ، كلما ظهرت بعض الفرق التي تبعد في فهمها لمسائل العقيدة بعيدًا عن فهم الصحابة والتابعين.

في الفصل الأول: تحدثت عن وجود الله ومنهج القرآن في إثبات وجود الله، ثم تساءلت هل أنكر العرب وجود الله؟ وانتهيت إلى أن العرب الذين نزل فيهم القرآن الكريم لم ينكروا وجوده، وأثبت أن القرآن الكريم كان يولي أهمية قصوى لإثبات الوحدانية.

ثم تناولت بإيجاز دليل المتكلمين في إثبات وجود الله، ودليل الفلاسفة، ثم تحدثت باستفاضة حول شبه منكري الألوهية وعرضت بالتفصيل شبه القائلين بأزلية الكون، والقائلين بأن العالم خلق بالصدفة وليس بالقصد والتدبير، وشبهة القائلين بالتطور في خلق الكائنات إنكارًا للخلق من قبل الله.

أما الفصل الثاني: فكان عن توحيد الله في أسمائه وصفاته، عرضت فيه لإثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وانتصرت لمذهب السلف في إثبات الأسماء والصفات.

ثم عرضت لشبهة غير الموحدين، متمثلة في الوثنيين، فعرضت شبهتهم في اتخاذ الأصنام شفعاء لهم عند الله تعالى وشبهة عبادتهم للكواكب وشبهة ادعائهم اتخاذ الله ولدًا.

ثم احتجاجهم بالقدر على شركهم ووضحت منهج القرآن الكريم في الرد على تلك الشبهات.

واستأنست بمفهوم العلماء وتفسيرهم واستنباطهم الحجج من القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ لدحض مفتريات المشركين ومن على شاكلتهم في كل زمان ومكان.

ثم عقبت بتعقيب حول اهتمام القرآن الكريم بالوحدانية إثباتًا بالأدلة البرهانية والإقناعية والخطابية، وبينت أن ملاك الأدلة قدمها القرآن الكريم، لإقناع النفس البشرية بتوحيد الله سبحانه، الذي جاءت به جميع الرسالات من لدن آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ.

أسأل الله تعالى أن يمكن لدينه وأن يوفقنا لخدمة ديننا الحنيف وأزهرنا الشريف.

«وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»

أ.د/ فرج الله عبد الباري أبو عطا الله

أستاذ العقيـــدة

بجامعة الأزهر

* * *



مدخل

ويشتمل على المسائل التالية:

المسألة الأولى: معنى العقيدة لغة واصطلاحًا:

ورد في أساس البلاغة: «عقد بناء معقود ومُعَقَّدٌ، جُعل عُقودًا أي طاقات معطوفة كالأبواب، وعَقَد بناءه، وعقَّده، وتعقد السحاب إذا صار كأنه عقد مبني» [(١)].

وورد في معجم الرائد: «عقد يعقد عقدًا الحبل أو نحوه جعل فيه عُقدة، وعقد البيع أو اليمين أو العهد أو نحوها أحكم شده وأكده» [(٢)].

وفي المعجم الوسيط: «العقيدة: هي الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، وفي الدين ما يقصد به الاعتقاد دون العمل، كعقيدة وجود الله وبعثة الرسل والجمع عقائد» [(٣)].

وقد وردت مادة عقد في القرآن الكريم وكان يقصد بها الإحكام والربط بين شيئين، والتوثيق.

يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة :٢٣٥] .

ويقول عز وجل: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة :٢٣٧] .

ويقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء :٣٣].

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري (٢/١٣١).

(٢) الرائد جبران مسعود (٢/١٠٣٨).

(٣) المعجم الوسيط (٢/٦١٤).

ويقول عز وجل: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة :١] .

ويقول سبحانه: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة :٨٩].

ويقول عز وجل: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه :٢٧-٢٨].

ويقول جل وعلا: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق :٤].

وكلمة العقيدة في معناها اللغوي تعني الميثاق الذي ورد في القرآن الكريم بعدة معانٍ من بينها العهد، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران :٨١] .

وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة :١٢] .

وكما في قوله تعالي: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب :٧] .

هذه الآيات جميعها وردت فيها كلمة الميثاق بمعنى العهد والعقد (١).

أما معنى العقيدة في الاصطلاح فهي: «**مجموعة من قضايا الحق المسلمة بالسمع والعقل والفطرة يعقد عليها الإنسان قلبه ويثني عليها صدره جازمًا بصحتها قاطعًا بوجودها وثبوتها**» (٢).

ونستطيع أن نقرر في وضوح أن العقيدة الإسلامية هي الإيمان الجازم بالله من ناحية وحدانيته واتصافه بصفات الكمال وتنزيهه عن جميع صفات النقص، والإيمان الجازم بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره.

إن العقيدة في الإسلام تعني الإيمان كما ورد في القرآن الكريم بمعنى أنه

---

(١) انظر : تفسير الجلالين (ص٤١٩)

(٢) مباحث في علوم العقيدة: د/آمنة نصير (ص ١٠) مكتبة الكليات الأزهرية.

في حقيقته ليس مجرد قول باللسان، ولا عمل بالبدن فحسب، وإنما هو عمل نفسي يبلغ أغوار النفس ويحيط بجوانبها من كل ناحية سواء الإدراك أو الإرادة أو الوجدان، فلا بد من إدراك ذهني تتكشف به حقائق الوجود على ما هي عليه في الواقع وهذا التكشف لا يتم إلا عن طريق الوحي الإلهي المعصوم [(١)]، الذي لن تجده البشرية إلا في دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ خاتمًا للأنبياء والرسل.

يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥][(٢)].

ثانيًا: وحدة العقيدة:

ينبغي أن نقرر أن العقيدة في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر واحدة مع جميع الأنبياء والمرسلين من أول سيدنا آدم إلى سيدنا رسول الله ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى:١٣] .

فأصول العقائد واحدة بين جميع الأنبياء والمرسلين ولكن الاختلاف يكون في التشريعات، فكل أمة لها من التشريعات ما يتناسب مع ظروفها وأحوالها ومستواها الفكري والروحي.

يقول سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة:٤٨].

وينبغي أن نقرر في الوقت ذاته أن دين جميع الأنبياء هو الإسلام، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران:١٩] .

ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥] .

---

(١) انظر دراسات في العقيدة الإسلامية: د/فتحي الزغبي (ص ٨٣) .

(٢) انظر تفسير الجلالين (ص ٥١٧) .

ثالثًا: أهمية علم العقيدة:

علم العقيدة أو الإيمان أو التوحيد، أهم العلوم وأشرفها فهو بمثابة الرأس والقلب من الجسد، فكل العلوم تابعة لعلم العقيدة، أعني العلوم الشرعية، فإذا أراد الإنسان أن يدرس علم التفسير مثلاً فلا بد أن يتيقن أن القرآن الكريم كلام الله أنزله على قلب سيدنا محمد ﷺ وأن إثبات الرسالة من مفردات علم العقيدة، وإذا أراد أن يدرس علم الفقه والأحكام الشرعية المستنبطة من أدلتها، فلا بد أن يعتقد أولاً صدق الرسول ﷺ، وهكذا دواليك، ومن ثمَّ فإن علم العقيدة تكمن منفعته في الدنيا بانتظام أمر المعاش وأما في الآخرة فهو النجاة من النار والفوز بالجنة.

وكما يقرر التفتازاني: «**بأنه أشرف الغايات مع الإشارة إلى شدة الاحتياج إليه وابتناء سائر العلوم عليه والإشارة بوثاقة براهينه لكونها يقينيات يتطابق عليها العقل والشرع**»[١].

إن حاجة البشر إلى العقيدة الصحيحة فوق كل ضرورة؛ لأنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله ويكون مع ذلك أحب إليها مما سواه ويكون سعيها فيما يقربها إليه دون غيره من سائر خلقه[٢].

وتتمثل أهمية علم العقيدة في:

١- الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [**المجادلة :١١**] .

٢- إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة وإلزام المعاندين بإقامة الحجة.

٣- حفظ قواعد الدين على أن تزلزلها شبه المبطلين.

---

(١) انظر شرح المقاصد للسعد التفتازاني (١ / ٨) بتصرف يسير.

(٢) شرح الطحاوية بتصرف (ص ١٧) تحقيق الشيخ: أحمد شاكر.

٤- أن يبني عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها وإليه يؤول أخذها واقتباسها.

٥- صحة النية والاعتقاد إذ بها يرجى قبول العمل وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين.

التضحية من أجل العقيدة:

للعقيدة ثمرات كثيرة يجنيها المسلم في حياته وبعد مماته، ففي حياته يكون له مبدأ يدافع عنه ويموت في سبيله ويضحي من أجله، ولقد ذكر القرآن الكريم الكثير من النماذج لأصحاب العقائد الثابتة الذين دفعوا ثمنًا لعقيدتهم ويأتي على رأس هؤلاء جميعًا الأنبياء والرسل.

من أجل الدفاع عن العقيدة وجد الشهداء الذين قابلوا الموت بوجوه ضاحكة، ونفوس مستبشرة، ولسان أحدهم يقول فزت ورب الكعبة.

من أجل الدفاع عن العقيدة الصحيحة وُجد المؤمنون الأوفياء الذين ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب :٢٣][(١)].

وما أصحاب الأخدود وأهل الكهف وزوجة فرعون وصحابة النبي ﷺ إلا نماذج حيّة، واضحة أمامنا، لمن يريد أن يقتدي بهم ويسير على دربهم ليفوز بما فازوا به من عز وكرامة في الدنيا، وجنات ونهر في الآخرة، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة :١١١].

* * *

(١) وانظر العقيدة والأخلاق (ص ٨-٩)

رابعًا: الأسماء التي تطلق على علم العقيدة:

١- علم التوحيد:

وسُمي بعلم التوحيد لأن مبحث الوحدانية أشهر مباحثه [(١)]، ولذلك اشتهر بين الدارسين والعلماء بعلم التوحيد إذ ما جاء رسول ولا نبي إلى قومه إلا بالتوحيد، يقول سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء :٢٥]. ويقول عز وجل: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف :٤٥].

يقول الإمام محمد عبده: «**أصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له وسُمي هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الأكوان وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي ﷺ** [(٢)]، وكل الأنبياء والمرسلين من قبله.

وقد عُرفت تسمية علم العقيدة بعلم التوحيد من قديم حيث عُرف كتاب التوحيد للإمام أبي منصور الماتريدي، وكتاب التمهيد لقواعد التوحيد للإمام النسفي، وشاعت في العصور المتأخرة فألف الشيخ اللقاني جوهرة التوحيد التي شرحها الإمام البيجوري وألف الشيخ محمد بن عبد الوهاب كتاب «**التوحيد الذي هو حق الله على العبيد**» وجمال الدين القاسمي له كتاب يسمى «**دلائل التوحيد**» والشيخ محمد عبده له «**رسالة التوحيد**»، وعُرف تدريس العقيدة الإسلامية في معاهد الأزهر الشريف وجامعته باسم «**مادة التوحيد**» [(٣)].

وهذه التسمية هي ما نستريح إليه ونفضل إطلاقها على علم العقيدة لأنه فضلاً عن أن صفة الوحدانية أشهر مباحث علم التوحيد، فإن التوحيد علم

---

(١) البيجوري على الجوهرة (ص ١٦).

(٢) رسالة التوحيد (ص ٢٠)

(٣) انظر بتصرف دراسات في العقيدة الإسلامية (ص ٥١ ـ ٥٢)

على دين الإسلام، كما أن التثليث علم على النصرانية المبدلة والإسبات أي الراحة يوم السبت علم على اليهود والتناسخ علم على الهنود كما يقرر البيروني [(١)].

٢- علم الفقه الأكبر:

أول من أطلق على علم العقيدة علم الفقه الأكبر الإمام أبو حنيفة ووجه التسمية بهذا أن علم التوحيد هو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع.

يقول شارح الطحاوية: «**ولهذا سمي الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ما قاله وجمعه في أوراق من أصول الدين الفقه الأكبر؛ لأن حاجة العباد إليه فوق كل حاجة وضروراتهم إليه فوق كل ضرورة**» [(٢)].

وقد رجح بعض الباحثين المعاصرين هذه التسمية ودلل عليها ببعض الأدلة منها:

١- أنها تسمية ذات أسس عريقة قرآنية فضلاً عن خلوها من المآخذ التي تثيرها التسمية المشهورة بعلم الكلام.

٢- أن هذه التسمية ترفع مكانة هذا العلم الباحث في الأحكام الشرعية الاعتقادية الذي سماه «**بالفقه الأكبر**» فوق علم الفقه أو العلم الباحث في الأحكام العملية الفرعية من حيث إن هذه الأخيرة تنبني على صحة الاعتقاد بأصول الدين من معرفة بالشارع سبحانه، وبصحة ورود الشريعة ووجوب التزام المكلف بها، ومن ثمَّ كانت هذه أصولاً والأولى فروعًا [(٣)].

٣- أنها تبين ارتباط هذا العلم «**التوحيد**» بعلوم الشريعة الإسلامية ومكانته بين العلوم من ناحية، كما أنها من ناحية أخرى تتيح له التوسع والتفتح

---

(١) انظر تحقيق ما للهند من مقولة (ص ٣٩) عالم الكتب الطبعة الثانية ١٩٨٣م

(٢) شرح الطحاوية (ص ١٧)

(٣) المدخل لدراسة علم الكلام (ص ١٤)

ليتضمن بحث الأصول الفكرية للدين الإسلامي سواء كانت مما يلزم اعتقاده أو مما ينبثق عن هذه العقيدة أو يرتبط بها من أصول ومبادئ عامة تصور موقف الإسلام من الكون والحياة والإنسان [١].

٣- علم أصول الدين:

سُمي علم العقيدة بعلم أصول الدين لأن المسائل التي يقوم بإثباتها والدفاع عنها هي الأصول العقدية التي ينبغي على المكلف العلم بها.

يقول شارح الطحاوية: «**فإنه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم إذ شرف العلم بشرف المعلوم، وهو الفقه الأكبر بالنسبة لفقه الفروع**» [٢].

وكثيرًا ما كان العلماء يسمون بحوثهم في العقيدة بعلم أصول الدين أو أصول الملة أو الديانة، فالإمام الأشعري ألف كتابه: «**الإبانة عن أصول الديانة**»، وللجويني كتاب سماه: «**الشامل في أصول الدين**»، والبغدادي ألف كتابًا في العقيدة سماه: «**أصول الدين**»، وللإمام فخر الدين الرازي كتاب معنون بـ «**الأربعين في أصول الدين**»، يقول في مقدمته: «**فهذا مختصر يشتمل على خمسة أنواع من العلوم المهمة فأولها علم أصول الدين**» [٣].

وللغزالي أبي حامد كتابًا اسمه: «**الأربعين في أصول الدين**» تحدث فيه عن كثير من الأصول العقدية التي تتعلق بالإلهيات والسمعيات [٤].

وكذلك عندما أنشئت الكليات في الجامع الأزهر أطلق علي الكلية التي تقوم بتدريس مادة العقيدة الإسلامية وما يتصل بها من قريب أو بعيد كلية أصول الدين [٥].

---

(١) المدخل لدراسة علم الكلام :د/ حسن الشافعي (ص ١٤ ، ٣٢ ، ٣٣)
(٢) شرح الطحاوية (ص ١٧)
(٣) الأربعين في أصول الدين بهامش محصل أفكار المتقدمين (ص ٣)
(٤) انظر دراسات في العقيدة (ص ٤٦)
(٥) نفس المصدر (ص ٤٧)

٤- علم الكلام:

من أشهر الإطلاقات على علم العقيدة «علم الكلام» لأن أبوابه عُنونت بالكلام في كذا، أو لأنه قد كثر الاختلاف فيه حول مسألة الكلام [(١)].

يقول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد: «وقد يسمى» أي علم العقيدة: **«علم الكلام، إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هي أن كلام الله المتلو حادث أو قديم، وإما لأن مبناه الدليل العقلي وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه وقلما يرجع فيه إلى النقل، اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى ثم الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها وإن كان أصلًا لما يأتي بعدها، وإما لأنه في بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبيينه مسالك الحجة في علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما»** [(٢)].

وكلام الشيخ محمد عبده تلخيصًا لما قاله صاحب المواقف وشارح المقاصد وما أورده صاحب العقيدة النسفية.

وينفذ الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى السبب الحقيقي لتسمية علم العقيدة بعلم الكلام يقول: **«وإنما سمي البحث في الشئون الاعتقادية كلامًا وسمي أهله متكلمين لأحد وجهين:**

أولهما: يؤخذ مما رواه جلال الدين السيوطي (٩١٤هـ) في كتاب **«صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام»** وأخرج عن مالك رضي الله عنه المتوفى (١٧٩هـ) قال: **«إياكم والبدع. قيل: يا عبد الله وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان»**.

ويورد الشيخ مصطفى عبد الرازق نصوصًا كثيرة عن رسول الله ﷺ وعن

(١) شرح البيجوري على الجوهرة (ص ١٦)
(٢) رسالة التوحيد (ص ٢٠ - ٢١)

الصحابة والسلف تذم الكلام والذين يشتغلون به.

ثانيهما: يؤخذ مما نقله ابن عبد البر المتوفى (٤٦٣هـ) في كتاب «**مختصر جامع بيان العلم وفضله**»، عن مصعب بن عبد الله الزبيري قال: كان مالك بن أنس يقول: «**الكلام في الدين أكرهه ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه نحو الكلام في رأي جهم والقدر وما أشبه ذلك ولا أحب الكلام إلا فيما فيه عمل**» (١).

وهو تعليل مقبول إلى حد كبير من الناحية الاصطلاحية ؛ لأن أرباب الفرق كانوا يُعرفون بالمتكلمين في مقابل السلف الذين كانوا يسكتون عن الكلام فيما نهوا عن الخوض فيه.

تعريف علم الكلام على النحو الاصطلاحي
الذي اشتهر به عند مؤرخي العقيدة وأرباب الفرق والمقالات

أولاً: عند الإمام الغزالي:

يقول عنه: «**وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة**» (٢).

ويشرح الغزالي الغاية من علم الكلام والاشتغال به فيذكر: «**أن الله ألقى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أمورًا مخالفة للسنة فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين وحرَّك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله**» (٣).

ويعلق المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود على كلام الغزالي بقوله: « نرى

---

(١) انظر : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية (ص ٢٢٦ - ٢٦٧) بتصرف.

(٢) المنقذ من الضلال (ص ٧٨)

(٣) نفسه (ص ٧٩)

الإمام الغزالي مع هدمه في النهاية لعلم الكلام مجاملًا للمتكلمين» [١].

وهذا كلام الإمام الدكتور عبد الحليم محمود الخبير المحيط بآراء الغزالي في المتكلمين والفلاسفة وسائر الفرق.

ثانيًا: عند ابن خلدون:

يعرف ابن خلدون علم الكلام بأنه: «**علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات من مذاهب السلف وأهل السنة»** [٢].

ولعلنا نجد وجه الشبه واضحًا بين تعريف ابن خلدون وتعريف الإمام الغزالي من قبله، ومفاد التعريفين أن السلف أخذوا العقائد الإيمانية من الكتاب والسنة ثم جاء المتكلمون وأوضحوا تلك العقائد وجادلوا بها المعاندين ليدفعوا البدع التي أثارها المبتدعون حول عقائد السلف.

ويعرفه التفتازاني بقوله: «**الكلام هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية وموضوعه العلوم من حيث ما يتعلق به إثباتها ومسائله القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية، وغايته تحلية الإيمان بالإيقان، ومنفعته الفوز بنظام المعاش ونجاة المعاد فهو أشرف العلوم»** [٣].

وواضح من تعريف التفتازاني أنه يجعل علم الكلام قائمًا على الأدلة اليقينية المستمدة من الكتاب والسنة.

ويعرفه عضد الدين الإيجي بأنه: «**علم يقتدر به معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه»** [٤].

---

(١) هامش المنقذ من الضلال (ص ٧٨)

(٢) مقدمة ابن خلدون (ص ٤٠٠)

(٣) شرح المقاصد انظر (ص ١٧٩ ، ١٩٠) تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة

(٤) المواقف (ص ٧)

ويشرح التعريف فيذكر: «**أن المراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد ﷺ فإن الخصم وإن أخطأناه لا نخرجه من علماء الكلام**» [(١)].

ويلاحظ الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الإيجي في تعريفه يجعل علم الكلام أداة دفاع لكل معتقد عن عقيدته سواء أكانت على منهج السلف أو كانت على غيره؛ لأن مفاد تعريفه أن دفاع المبتدع عن عقيدته بالبراهين العقلية كلام أيضًا [(٢)].

خامسًا: حكم الاشتغال بعلم الكلام:

دار أخذ ورد بين العلماء في الاشتغال بعلم الكلام ما بين مُحرم له وما بين مجوز للاشتغال به، بل وبعض العلماء أوجب الاشتغال به لمن كانت عنده القدرة على الجدال.

قد لخص الإمام الرازي حجج المانعين للاشتغال بعلم الكلام ثم فندها:

١- حجج القائلين بعدم جواز الاشتغال بعلم الكلام:

قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف :٥٨] فيه ذم الجدل وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام :٦٨] قالوا: فأمر بالإعراض عنهم عند خوضهم في آيات الله تعالى.

٢- استدلوا بقوله ﷺ: «**إذا ذكر القدر فأمسكوا**» وبأن هذا العلم لم تتكلم فيه الصحابة فيكون بدعة، وما نقل عن مالك بن أنس: «إياكم والبدع قيل: وما البدع يا أبا عبد الله؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون».

---

(١) المواقف (ص ٧)

(٢) التمهيد (ص ٢٦٢)

وسئل سفيان بن عيينة عن الكلام فقال: اتبع السنة ودع البدعة.

وقال الشافعي رضي الله عنه لأن يبتلى العبد بكل ذنب سوى الشرك خيرٌ له من أن يلقاه بشيء من الكلام.

هذه كانت حجج المانعين للاشتغال بعلم الكلام بإيجاز [١].

وقد أجيب عن هذه الحجج بالآتي:

١- أن الجدل في قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف :٥٨] محمول على الجدل بالباطل، توفيقًا بينه وبين قوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل :١٢٥] وأما قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨] فالخوض ليس هو النظر بل الخوض في الشيء هو اللجاج والخصومة المؤدية إلى النزاع.

٢- أما قوله ﷺ: «**إذا ذكر القدر فأمسكوا**» يقول عنه الرازي: فضعيف؛ لأن النهي الجزئي لا يفيد النهى الكلى.

أما استدلالهم بأن الإجماع منعقد على أن الصحابة والسلف لم ينشغلوا به.

فلو كان المراد أن الصحابة لم يستعملوا ألفاظ المتكلمين فمسلم، لكنه لا يلزم منه القدح في الفقه ألبتة، ثم إن الصحابة لم يستعملوا ألفاظ الفقهاء ولا يلزم منه القدح في الفقه، ثم إن الصحابة لم يستعملوا هذه الألفاظ لأن مثلهم كمثل قوم ليس بحضرتهم من يقاتلهم فلا يقاتلهم فلا يتكلفون السلاح [٢].

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي (١/ ١٠٠-١٠٥) وانظر تمهيد في تاريخ الفلسفة الإسلامية (ص٢٧١ - ٢٧٣) ، وانظر مقدمة المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود (ص ٣٩ - ٤٠) وانظر: المدخل لدراسة علم الكلام (ص) د/حسن الشافعي.

(٢) انظر هذه الحجج مفصلة لدى الرازى فى التفسير الكبير (١/ ١٠٢-١٠٤)،وانظر المدخل لدراسة علم الكلام (ص ٤١ - ٤٢).

وأما تشديد السلف على الكلام فهو محمول على أهل البدع والمخالفين للكتاب والسنة وهذا ما يشهد له اشتغالهم هم أنفسهم بلون من الكلام يتفق في رأيهم مع القرآن الكريم ويعتمد على السنة الصحيحة ومدارك العقول.

فألف أبو حذيفة الفقه الأكبر والفقه الأوسط والوصية والعلم والمتعلم.

وناظر الشافعي حفصًا الفرد وغيره وهو من المتكلمين المبتدعين، ورد على المرجئة، وألف الإمام أحمد كتاب: «**الرد على الجهمية**» وكلها مؤلفات في الكلام إلا أنه كلام موافق لعقيدة أهل السنة والجماعة جاء على نهج الكتاب والسنة.

موقفنا إزاء هذه الحجج من المانعين والمجوزين:

نرى أن من التزم من المتكلمين بأدلة الكتاب والسنة والأدلة العقلية المستقاة منهما فلا ضير عليه بل هو مأجور إن شاء الله، أما من خالف الكتاب والسنة وجادل بالباطل لا لنصرة الحق في ذاته وإنما لنصرة مذهبه أو القواعد والأصول التي بُني عليها مذهبه، فهو مذموم، ومرتكب ما نُهي عنه.

وكما يقول أستاذنا الدكتور حسن الشافعي بعد أن استعرض رأي المانعين والمجوزين باستفاضة:

«أحسب أن من شاركنا من القراء في استعراض المواقف السابقة ثم دعته دواع فكرية أو اجتماعية أو تعليمية للاشتغال بعلم الكلام يستطيع أن يقدم على ما يريد دون حرج في الصدر أو تردد في الخطو ينشأ من السؤال التقليدي حول مشروعية البحث في علم الكلام» [١].

على أن يكون القصد من وراء الاشتغال نصرة الإسلام والدفاع عنه كما فعل علماء الكلام، في بداية نشأته، يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم: «**ولقد أرغمت التحديات متكلمي الإسلام على توجيه أنظارهم إلى المباحث التي يدور فيها**

(١) المدخل لدراسة علم الكلام (ص ٤٨)

الاحتكاك بين الإسلام وتلك العقائد لقد كان لهذا العلم في هذا المجال هدف جليل يتمثل في المحافظة على عقائد المسلمين وكان عليه أن يواجه في هذا الموقف أعتى أعداء الإسلام وأخطرهم وأقواهم سلاحًا وأشدهم تمكنًا وأكثرهم تحالفًا وأوسعهم تنوعًا» (١).

بل إن أستاذنا الدكتور يحيى هاشم ليعتبر أن من فضل الله على الأمة أن وفق علماء الكلام للذود عن الإسلام، يقول: «**وإن المرء ليكاد يؤخذ من هول تصوره لما كان يمكن أن يحدث لو أن هذا الهجوم العقدي وجد المسلمين فراغًا والتقى فيهم بالمواقف السلبية»** (٢).

وحول الجدل والتفرق بين المسلمين الذي صاحب نشأة علم الكلام يقول: «**ومهما يكن القول في آثار هذا العلم التي لا تكاد تمحى في إحداث المذاهب وترسيخ التفرق وإثارة الجدل فإن قيامه بعبء هذا الهدف الجليل، يحتم علينا إغضاء الطرف عما اضطر إليه من ذلك»** (٣).

ومفاد كلام أستاذنا أن ما قدمه علم الكلام في بدايته من إيجابيات يفوق سلبياته.

أقسام علم العقيدة:

جرت عادة العلماء على تقسيم علم العقيدة إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الإلهيات: ويختص الحديث في هذا القسم عن ذات الله من حيث ما يجب له وما يستحيل وما يجوز في حقه عز وجل، وكذا مسألة وجود الله ووحدانيته ومسألة الصفات والقضاء والقدر.

القسم الثالث: السمعيات: وهي التي تتعلق بالأمور التي لا طريق إلى إثباتها

---

(١) انظر أستاذنا الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل: الأسس المنهجية (ص ٩)

(٢) نفس المصدر السابق (ص٩)

(٣) نفسه وانظر عوامل وأهداف علم الكلام طبعة مجمع البحوث الإسلامية

إلا بالنصوص الواردة عن الله وعن رسوله ﷺ كاليوم الآخر ومشاهدة الجنة والنار، وكالملائكة، والجن والشياطين، كل هذه العقائد من السمعيات، والتي يتكفل علم العقيدة بإثباتها والاستدلال عليها. هذا هو التقسيم المشهور.

وهناك من يقسم علم العقيدة إلى الإلهيات، والسمعيات ويدخل النبوات في السمعيات من حيث إن تصديق النبي يتوقف على السمع.

وهناك مباحث أخرى تتعلق بعلم العقيدة مثل الأسماء والأحكام ومبحث الإمامة الذي يذكر غالبًا في نهاية كتب العقيدة، ويبدو أن أهل السنة والجماعة ألحقوا هذا القسم بكتب العقيدة لأنهم كانوا يناقشون ويجادلون الشيعة، في كون الإمامة من أركان الدين.

المسألة السادسة: الأمور العقدية في عهد الرسول ﷺ:

جاء محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد، واهتم القرآن الكريم بتأصيل العقيدة وتأسيسها خاصة في المرحلة المكية، وجميع أركان العقيدة شملها القرآن الكريم ببيان واضح، وبينها النبي ﷺ.

على أنه كانت تعرض أسئلة عقدية على الصحابة فكانوا يسألون النبي ﷺ عنها، ويستوضحون معانيها، ولكن صحابة النبي ﷺ كان يشغلهم العمل بالقرآن عن الخوض في متشابهه وكانوا لا يتكلفون الأسئلة ولا يتفيهقون ولا يتشدقون.

وهناك بعض آيات القرآن الكريم مما يتعلق بالعقيدة فسرها النبي ﷺ وتلقاها الصحابة بالقبول والتسليم.

ففي قول الله تعالى فيما حكاه عن اليهود: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة :٦٤].

فسر النبي ﷺ هذه الآية، فيما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحَّاء الليل والنهار**»، وقال: «**أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يده وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع**»[(١)].

قال الترمذي: «**هذا الحديث حسن صحيح. وقد روته الأئمة هكذا: يؤمن به كما جاء من غير أن يفسر أو يتوهم**»[(٢)].

هنا لم يسأل الصحابة هل اليد بمعنى القدرة؟، أو يسألون عن كيفية ملأ يد الله ولم يسألوا عن العرش وكيفيته والميزان وحقيقته، وإنما كان يكفيهم بيان النبي ﷺ وسكوته.

ومن قبيل هذا ما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أو يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأراضين على إصبع والجبال والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول: «**أنا الملك أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال الحبر تصديقًا له ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر :٦٧]** »[(٣)].

هنا لم يسأل الصحابة عن معنى الإصبع؛ لأنهم لم يكن لهم هم إلا التصديق والعمل النافع، وكانوا يتوقفون عند بيان رسول الله ﷺ سواء فيما سألوه عنه أو أخبرهم به أو سكت عنه ﷺ.

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة :٤]. قال: «**أتدرون ما أخبارها**».

قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما**

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير باب قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود :٧] (٣/٢٠٢)
(٢) سنن الترمذي (٥ / ٣٤)
(٣) انظر : فتح الباري (٨ / ٤١٢)

عمل على ظهرها تقول: عمل كذا ، وكذا، وكذا، فهذه أخبارها» [١].

وقد بين ﷺ معنى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] ﷺ: **«إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جناته وزوجاته ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم من ينظر إلى الله غدوة وعشية ثم قرأ رسول الله ﷺ:** ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة :٢٢-٢٣][٢].

هكذا فسر وبيَّن ﷺ وقبل الصحابة - بالتسليم - ما ورد عنه ﷺ، وإن أراد القارئ أن يعرف الفرق بين تلقي الصحابة لهذه الآية وبين غيرهم من علماء الكلام فلينظر إلى كتب المتكلمين وما أثاروه حول هذه الآية ودلالتها [٣].

لقد نهى القرآن الكريم عن الجدال بغير حق وإن كان الله عز وجل قد أفرد آيات كثيرة لجدال المشركين في قضايا الوحدانية والنبوة واليوم الآخر وجادل اليهود والنصارى فيما كانوا يثيرونه حول الوحي والنبوة، إلا أنه لا يمد في حبل الجدل حرصًا على الألفة.

وكثيرًا ما تختم آيات الجدل بمثل قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [الحج :٦٨-٦٩][٤].

هذا الجدل في العقائد عرض له القرآن للحجة وعلى مقدارها من غير أن يشجع المسلمين على المضي فيه، بل هو قد نفرهم منه في مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا

(١) أخرجه الترمذي في التفسير باب ومن سورة ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾ [الزلزلة :١] (٥/ ٢٣٣-٢٣٤).

(٢) تحفة الأحوذي (٧ / ٢٧٠).

(٣) انظر الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٢٣٣) وانظر الكشاف للزمخشري (٤ / ١٩٢) وانظر الفصل (٣ / ٢ - ٣).

(٤) انظر تمهيد في تاريخ الفلسفة الإسلامية (ص ٢٧١).

ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة :١٤][١]، وهذه العداوة والبغضاء بسبب الجدال والاختلاف والشقاق الذي ذمه الله عز وجل في كتابه، ونهى المؤمنين عنه إلا بالتي هي أحسن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت :٤٦].

ونلاحظ أن الله - رب العالمين - لم يطلب الحسن في الجدال وإنما طلب الأحسن حتى ينتبه المجادل المسلم جيدًا لما ينبغي أن يكون عليه فكرًا ونفسًا ولفظًا [٢].

ولذلك وقف النبي ﷺ ضد الجدال والمراء في الدين وحذر الصحابة منه والأمة من أضراره.

وقد وردت الأحاديث عن النبي ﷺ التي تنهى عن الجدال والمراء وورد عن السلف الصالح آثار تسير في اتجاه التحذير من الجدال والخصومة والتقعر والبحث عن دقيق الأمور وغوامضها والبحث في المتشابه منها ما أورده السيوطي عن كتاب «**ذم الكلام وأهله**» لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي المتوفي سنة (٤٨١هـ)، أخرج عن طريق عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يتراجعون في القدر فخرج مغضبًا حتى وقف عليهم فقال: «**يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضًا ما عرفتم منه فاعملوا وما تشابه فآمنوا به**».

وأخرج عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه ثم قال: أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم؟ ما هلك من كان قبلكم حتى تنازعوا في هذا الأمر عزمت عليكم ألا تنازعوا».

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير (١ /٤٩٨)

(٢) مدخل إلى الاستدلال القرآني (ص ٩٠).

وأخرج عن أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع قالوا: خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في شيء من الدين فغضب غضبًا شديدًا لم يغضب مثله ثم انتهرنا قال: «**يا أمة محمد لا تهيجوا على أنفسكم، ثم قال: أبهذا أمرتكم؟ أو ليس عن هذا نهيتكم؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا ثم قال: ذروا المراء** [(١)] لقلة خيره، ذروا المراء فإن نفعه قليل ويهيج العداوة بين الإخوان، روا المراء فإن المراء لا تؤمن فتنته، ذروا المراء فإن المراء يورث الشك ويحبط العمل، ذروا المراء فإن المؤمن لا يماري، ذروا المراء فكفى بك إثمًا ألا تزال مماريًا، ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة في وسطها ورباضها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد، ولكن رضي بالتحريش وهو المراء في الدين، ذروا المراء فإن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة والنصارى على اثنين وسبعين فرقة وإن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلهم على الضلالة إلا السواد الأعظم»، قالوا: يا رسول الله وما السواد الأعظم؟ قال: «**من كان على ما أنا عليه وأصحابي**». ثم قال: «**إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء**»، قالوا يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: «**الذين يصلحون إذا فسد الناس ولا يمارون في دين الله**» [(٢)].

ولا شك أن هذا النهي قد أثر تأثيرًا كبيرًا في الصحابة فلم يسألوا ولم يجادلوا ولم يماروا في شيء من أمور الدين، وكما يقرر المقريزي في الخطط: «**أن من أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ** عن معنى شيء مما وصف الرب

---

(١) المراء: تمارى القوم: تجادلوا، وتمارى في الشيء شك فيه وفي القرآن الكريم: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم :٥٥] انظر المعجم الوسيط (٢/٨٦٦).

(٢) نقلاً عن كتاب ذم الكلام لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي. انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية (ص ٢٨٢- ٢٨٣).

سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد ﷺ، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات ولم يفرِّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما أثبتوا له صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام، والعز والعظمة، وساقوا الكلام سوقًا واحدًا، وهكذا أثبتوا رضي الله عنهم ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك، مع نفي مماثلة المخلوقين، فأثبتوا رضي الله عنهم بلا تشبيه، ونزهوا من غير تعطيل، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ سوى كتاب الله ولا عرف أحد منهم شيئًا من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة» [١].

بهذه النظرة الشاملة عبر المقريزي عن عقيدة الصحابة رضوان الله عليهم وأنهم كفاهم ما نزل به القرآن وما حدثهم به النبي ﷺ وأن الجدل في الذات والصفات وسائر الأمور العقدية حدث بعد عهدهم رضوان الله عليهم.

والخلاصة التي ننتهي إليها هي أن الأمور العقدية من أصول الدين بينها الله في القرآن أحسن بيان، فقد بيَّن دلائل الربوبية والوحدانية ودلائل أسماء الرب وصفاته وبيَّن دلائل نبوة الأنبياء، وبين المعاد وقدرة الله عليه، فكان في بيان الله أصول الدين الحق وهو دين الله، وهي أصول ثابتة صحيحة ومعلومة تتضمن بيان العلم النافع والعمل الصالح والهدى ودين الحق، وأهل البدع الذين ابتدعوا أصول دين يخالف ذلك، وليس فيما ابتدعوه لا هدى ولا دين حق، فابتدعوا ما زعموا أنه أدلة وبراهين على إثبات الصانع وصدق الرسول ﷺ وإمكان المعاد أو وقوعه ، وفيما ابتدعوه ما خالفوا به الشرع ، وكل ما خالفوا فيه الشرع فقد خالفوا فيه العقل أيضًا [٢].

---

(١) خطط المقريزي (٤/١٨٠- ١٨١).

(٢) انظر: النبوات لابن تيمية (ص ١٤٥).

ويذكر ابن القيم أن الصحابة قد تنازعوا في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين، وأكمل الأمة إيمانًا، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم لم يسوموها تأويلاً ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلاً، ولم يبدو الشيء منهم إبطالاً ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها بل تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلها أمرًا واحدًا وأجروها على سنن واحدة ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوها عضين وأقروا بعضها وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين [(١)].

وبالجملة فقد فارق النبي ﷺ الحياة الدنيا والصحابة مجتمعون متحدون على رأي واحد في أصول الدين وعقائده، وبعد أن انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى حدثت اختلافات اجتهادية من الصحابة، سنتحدث عنها إن شاء الله تعالى.

المسألة السابعة: النظر العقدي في عهد الخلفاء الراشدين:

ذكرنا ما قرره العلماء أن المسلمين عند وفاة رسول الله ﷺ كانوا على منهاج واحد في أصول الدين وفروعه غير من أظهر وفاقًا وأضمر نفاقًا، كما يقول البغدادي في أصول الدين [(٢)].

وقد تكلم أكثر من واحد حول الاختلافات التي حدثت بعد عهد النبي ﷺ كالأشعري في مقالات الإسلاميين والبغدادي في الفرق بين الفرق والشهرستاني في الملل والنحل.

---

(١) إعلام الموقعين (١/٤٠) دار الحديث.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ١٤).

أول خلاف وقع منهم: اختلافهم في موت النبي ﷺ، فزعم قوم منهم أنه لم يمت وإنما أراد الله رفعه إليه كما رفع عيسى ابن مريم إليه، وقد زال هذا الخلاف، وأقر الجميع بموته حين تلا عليهم أبو بكر الصديق قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر :٣٠]، وقال لهم: **«من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»** [١].

وهنا نلاحظ أن الخلاف قد ارتفع ببركة صدق ويقين الصديق رضي الله عنه، ولكن فكرة الرفع تلك إذا كانت قد حُلت بتلاوة الصديق لآيات من القرآن الكريم ، فقد كان لها دلالتها العقلية الخطيرة فيما بعد ، لأن تفسير الموت بمعنى الرفع من قبيل التأويل الذي اتخذته بعض الفرق منهجًا أساسيًا في تخريج مسائل العقيدة، من الممكن أن يكون لهذا القول الأثر في القول بالرجعة عند بعض فرق الشيعة [٢].

وقد جهر ابن سبأ بالقول بالرجعة فيما بعد، فقد زعم أن النبي ﷺ سيرجع مرة أخرى، وجهر بهذه الفكرة في حياة سيدنا محمد ﷺ، ثم بعد وفاة علي رضوان الله عليه صرح بأن عليًا لم يمت وإنما صعد إلى السماء وسيرجع مرة أخرى [٣].

وعلينا أن نفرق تفريقًا جذريًا بين قول عمر رضوان الله عليه بأن محمدًا لم يمت، وبين رجوعه عن تلك الكلمة لما ذكره الصديق بالآيات القرآنية التي تتحدث عن وفاة الرسول ﷺ... إذ إن عمر من فرط حبه وتعلقه بالنبي ﷺ أصيب بصدمة عاطفية، جعلته يقول مقالته، بينما ابن سبأ قد أثار بالكلمة فتنة وعمد إلى إفساد عقيدة المسلمين، ولأنه يهودي كان يقصد الإثارة والفتنة ويعمد إلى بث بذور الشقاق والخلاف بين المسلمين الأوائل [٤].

---

(١) الفرق بين الفرق (ص ١٤- ١٥).

(٢) العقيدة الإسلامية (ص ١١٦).

(٣) انظر: الفرق بين الفرق (ص ١٥).

(٤) انظر: في فتنة عبد الله بن سبأ الاختراق اليهودي (ص٥٠- ٥٤).

الخلاف الثاني: في دفنه ﷺ، فأراد أهل مكة رده إلى مكة لأنها مولده ومبعثه وقبلته وموضع نسله وبها قبر جده إسماعيل عليه السلام، وأراد أهل المدينة دفنه بها لأنها دار هجرته ودار أنصاره، وقال آخرون بنقله إلى أرض القدس ودفنه ببيت المقدس عند قبر جده إبراهيم الخليل وزال هذا الخلاف بأن روى لهم أبو بكر الصديق عن النبي ﷺ أن الأنبياء يدفنون حيث يقبضون، فدفنوه في حجرته بالمدينة [١].

ونلاحظ كما لاحظنا من قبل أن كلام الصديق قُبل بلا مراجعة ولا جدال ولا تحزب لرأي ضد آخر.

الخلاف الثالث: في الإمامة: فقد قال الأنصار للمهاجرين منا أمير ومنكم أمير، وأذعنت الأنصار لسعد بن عبادة الخزرجي، وقالت قريش إن الإمامة لا تكون إلا في قريش ، ثم أذعنت الأنصار لقريش لما روي لهم قول النبي ﷺ: **«الأئمة من قريش»** وكان الذي أعلمهم بذلك الصديق رضوان الله عليه، وقد نزل الصحابة على رأيه، وبايعوه واجتمعوا على إمامته واتفقوا على خلافته [٢].

ولكن يبقى هذا الخلاف هو الخلاف الذي سينبني عليه الكثير من الاختلافات لأنه كما يقول الشهرستاني: **«أعظم خلاف بين الأمة على الإمامة إذ ما سُل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُل على الإمامة في كل زمان»** [٣].

ويقول البغدادي: **«وهذا الخلاف باق إلى اليوم - أي زمانه-»** [٤].

ولعل هذا الخلاف لخطورته وأهميته، هو ما حدا بالإمام الأشعري أن يجعله أول اختلاف بين المسلمين بعد نبيهم ﷺ، ويقرر أنه لم يحدث خلاف غيره في حياة أبي بكر رضوان الله عليه، وأيام عمر إلى أيام عثمان بن عفان

---

(١) انظر: الفرق بين الفرق (ص ١٥).

(٢) انظر مقالات الإسلاميين (ص ٢) والفرق بين الفرق للبغدادي (ص ١٥).

(٣) انظر الملل والنحل (ص ١٥).

(٤) انظر: الفرق بين الفرق (ص ١٥).

رضوان الله عليه [١]، وهو يقصد بالأولية هنا أهميته وخطورته، بالرغم من أنه حدث قبله وبعده بعض الاختلافات.

الخلاف الرابع : في شأن فدك [٢]: وفي توريث التركات عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم نفذ في ذلك قضاء أبي بكر بروايته عن النبي ﷺ: «**أن الأنبياء لا يورثون**» ونسجل أن أبا بكر حين منع فاطمة من الميراث منع زوجات النبي ﷺ ومنهن السيدة عائشة، ولذلك رضيت السيدة فاطمة بعد أن سمعت رواية الصديق عن أبيها [٣]، ولكن استُغل هذا الحادث من قبل بعض الفرق ونفخوا في أواره وخاضوا في أبي بكر الصديق بسببه.

الخلاف الخامس: اختلفوا في مانعي الزكاة: فقال قوم لا نقاتلهم قتال الكفرة، وقال قوم بل نقاتلهم حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: «**والله لو منعوني عقالاً مما أعطوا رسول الله لقاتلتهم عليه**» ومضى بنفسه إلى قتالهم ووافقه جماعة الصحابة بأسرهم وقد أدى اجتهاد عمر رضي الله عنه في أيام خلافته إلى رد السبايا والأموال إليهم وإطلاق المحبوسين منهم والإفراج عن أسراهم [٤].

وكان مرد الخلاف بين أبي بكر وعمر، أن عمر بن الخطاب قال: كيف نقاتلهم، وقد قال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم**» فقال أبو بكر: أليس قد قال: «**إلا بحقها**»، ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو منعوني عقالاً مما أدوه إلى النبي لقاتلتهم عليه.

---

(١) مقالات الإسلاميين (ص٣).

(٢) فدَك: قرية بخيبر وقيل بناحية الحجاز فيها عين ونخل أفاءها الله على نبيه ﷺ فكانت في يده حياته فلما انتقل إلى الرفيق الأعلى قال علي: إن النبي ﷺ قد جعلها في حياته لفاطمة رضي الله عنها وولدها، وقضى أبو بكر بأنها لا تورث، ولما مات أبو بكر سلمها عمر للعباس وعلي يليانها ولا يملكانها.

(٣) دراسات في العقيدة الإسلامية (ص ١٨٦).

(٤) الملل والنحل والفرق بين الفرق (ص١٧).

ويذهب الشيخ مصطفى عبد الرازق: إلى أن الخلاف في قتال مانعي الزكاة أو أهل الردة كما يسمونهم كان أصلاً لما حدث بعد ذلك من الخلاف في الإيمان والإسلام وتضمنهما للعمل أو عدم تضمنهما له [١].

الخلاف السادس: في تنصيص أبي بكر على عمر بالخلافة وقت الوفاة، فمن الناس من قال: وليت علينا فظًّا غليظًا، وارتفع الخلاف بقول أبي بكر لو سألني ربي لقلت: وليت عليهم خيرهم لهم، وقد وقع في زمانه اختلافات كثيرة في مسائل ميراث الجد والإخوة والكلالة وفي عقل الأصابع وديات الأسنان وحدود بعض الجرائم التي لم يرد فيها نص هذا وإنما كانت أهم أمورهم: الاشتغال بقتال الروم، وغزو العجم ففتح الله تعالى الفتوح على المسلمين وكثرت السبايا والغنائم، وكانوا كلهم يصدرون عن رأي عمر رضي الله عنه، فانتشرت الدعوة وظهرت الكلمة ودانت العرب ولانت العجم[٢].

ولكن بدأت بعض الآراء تظهر وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لها بالمرصاد، فقد ظهر رجل يقال له: «**صبيغ بن عسل**» يسأل عن المتشابه ويتكلم فيما لا يعنيه مما قد يحدث فتنًا بين العامة فطلبه عمر وقال له: من أنت؟ قال عبد الله صبيغ، وقال عمر: أنا عبد الله عمر، فأخذ يضربه بعراجين النخل حتى دمي رأسه فقال صبيغ: حسبك يا أمير المؤمنين فقد ذهب الذي كنت أجده في رأسي، ثم نفاه إلى البصرة حتى صلح حاله [٣].

وسيدنا عمر رضي الله عنه مثال للخليفة الناصح الذي لا يترك أمرًا يمر دون أن يقومه وأن يعيده إلى نصابه.

وبالجملة فقد كان الصحابة على كلمة واحدة في أبواب العدل والتوحيد

---

(١) انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية (ص ٢٨٤).
(٢) الملل والنحل (ص ٢٠- ٢٦).
(٣) انظر التبصير في الدين للإسفراييني (ص ٢) بتصرف يسير.

والوعد والوعيد وسائر أصول الدين، وكانوا على هذه الجملة في أيام أبي بكر وعمر وست سنين من خلافة عثمان [(١)].

الخلاف السابع: في أمر الشورى واختلاف الآراء فيها، واختلفوا كلهم على بيعة عثمان رضي الله عنه وانتظم الأمر واستمرت الدعوة في زمانه وكثرت الفتوح وامتلأ بيت المال وعاشر الخلق على أحسن خلق وعاملهم بأبسط يد غير أن أقاربه من بني أميَّة قد ركبوا نهابر (مهالك) فركبته، وجاروا فجير عليه ووقعت في زمانه اختلافات كثيرة وأخذوا عليه أحداثًا كلها محال على بني أميَّة [(٢)]، والأشياء التي وقعت من مخالفيه نقموها منه حتى أقدم لأجلها ظالموه على قتله [(٣)].

وقد فند أبو بكر بن العربي في كتابه العواصم من القواصم كل ما لحق بسيدنا عثمان من مخالفيه، بالحجة والبيان الشافي وبرأ عثمان مما نسب إليه. وملخص ما قاله عن عثمان: «**فلم يأت عثمان منكرًا لا في أول الأمر ولا في آخره ولا جاء الصحابة بمنكر، وكل ما سمعت من خبر باطل إياك أن تلتفت إليه**» [(٤)].

وينفذ الشيخ محمد عبده ببصيرة إلى فترتين: فترة الرسول ﷺ والخليفتين من بعده، وبين الزمن الأخير من عهد سيدنا عثمان.

يقول في رسالة التوحيد: «**مضى زمن النبي ﷺ** وهو المرجع في الحيرة والسراج في ظلمات الشبهة وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر في مدافعة الأعداء وجمع كلمة الأولياء ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم، ليبتلوها بالبحث في مباني عقائدهم وما كان من اختلاف قليل رد إليهما، وقضي الأمر فيه بحكمهما وبعد استشارة من جاورهما من أهل

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ١٧).
(٢) الملل والنحل (ص ٢٠- ٢٦).
(٣) الفرق بين الفرق (ص١٧).
(٤) انظر العواصم من القواصم (ص ٦٠) وانظر (ص ٦١- ٨٠).

البصر بالدين إن كانت حاجة إلى الاستشارة، وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام لا في أصول العقائد ثم كان الناس في الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه، يعتقدون بالتنزيه ويفوضون فيما يوهم التشبيه ويرون أن له معنى غير ما يُفْهم من ظاهر اللفظ... كان الأمر على ذلك إلى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث وأفضى إلى قتله فهوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة واصطدم الإسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها وبقى القرآن قائمًا على صراطه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر :٩]، وفتح للناس باب لتعدي الحدود التي حدها الدين فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعي وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم، وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم فقضيت أمور على غير ما يحبون» (١).

بالفعل قد تغيرت النفوس، فقد حدث الخلاف بين الصحابة في أمر الخلافة بعد موت رسول الله ﷺ، ولكن رُفع الخلاف وبايع الصحابة أبا بكر بعد سماعهم لحديث ورد عن رسول الله ﷺ يرفع النزاع.

أما في عهد سيدنا عثمان فإن السيوف قد سُلت وإن الأحزاب قد تحزبت. لماذا؟ لأنه قد كثر الداخلون في الإسلام وليس لهم من الدين إلا اسمه، ومنهم من دخل وهدفهم الأول والأخير الكيد للإسلام وبدأ هؤلاء الحاقدون يثيرون الاضطرابات في وجه عثمان رضي الله عنه وقامت الفتنة ولم تسكن بعد (٢).

الخلاف الثامن: في زمان أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه بعد الاتفاق عليه وعقد البيعة له.

---

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده (ص ٢٤، ٢٥) دار المعارف الطبعة الثالثة.

(٢) انظر دراسات في العقيدة الإسلامية (ص ١٩١- ١٩٢).

فأوله خروج طلحة والزبير إلى مكة ثم حمل عائشة إلى البصرة ثم نصب القتال معه ويعرف ذلك بحرب الجمل والحق أنهما رجعا وتابا إذ ذكرا أمرًا فتذكراه فأما الزبير فقتله «ابن جرموز» بقوس وقت الانصراف وهو أي قاتله في النار لقول النبي ﷺ: «**بشر قاتل ابن صفية بالنار**»، وأما طلحة فرماه مروان بن الحكم بسهم وقت الإعراض فخر ميتًا، وأما عائشة رضي الله عنها فكانت محمولة على ما فعلت ثم تابت بعد ذلك ورجعت والخلاف بينه وبين معاوية وحرب صفين ومخالفة الخوارج وحمله على التحكيم ومغادرة عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري وبقاء الخلاف إلى وقت وفاته مشهور، وكذلك الخلاف بينه وبين الشراة المارقين بالنهروان عقدًا وقولاً ونصب القتال معهم فعلاً ظاهرًا معروف [(١)].

وقد حدثت الخلافات العقدية في عهد سيدنا عليّ رضي الله عنه خاصة من الخوارج الذين كونوا فرقة لم تكتف بمخالفة المسلمين فكريًّا وعقديًّا، ولكنهم تعدوا الفكر إلى حمل السلاح، فكفروا مخالفيهم وأقاموا في كثير منهم القتل وقد انبرى لهم الصحابة رضوان الله عليهم بالرد وتفنيد ما أثاروه من عقائد وجادلوهم بالحجة والبرهان، فمنهم من استجاب ومنهم من استمر في غيه ولم يرجع إلى الحق وكان دينهم تكفير علي وعثمان وأصحاب الجمل ومعاوية وأصحابه والحكمين ومن رضي بالتحكيم وتكفير كل ذي ذنب ومعصية [(٢)]، وهكذا وضعت البذور الأولى لاختلاف الفرق فيما بعد.

المسألة الثامنة: بداية التفرق العقدي:

انقضى عصر الخلفاء الراشدين وظهرت رؤوس مسائل عقدية، وبدأت الفرق الدينية والسياسية تظهر وتتبلور، غير أن أهم مسألة شغلت المسلمين بعد الإمامة هي:

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني (ص ٢٥، ٢٦).

(٢) الفرق بين الفرق (ص ٨١) تحقيق محيي الدين عبد الحميد.

مسألة القدر:

وهي المسألة التي كانت أساسًا للتفرق والاختلاف بعد عهد الرسول ﷺ لقد كان هناك من يسأل عن القدر ويحتج به في عهد الخلفاء الراشدين.

ففي عهد عمر رضي الله عنه أُتي بسارق فقال له عمر: لم سرقت؟ فقال: قضى الله عليَّ فأمر عمر به فقطعت يده وضُرب أسواطًا فقيل له في ذلك فقال: القطع للسرقة والجلد للكذب على الله. فنحن نرى أن الرجل زعم أن القدر يبرر الجريمة، فما كان من سيدنا عمر إلا أن اعتبر ذلك من الكذب على الله.

وفي عهد سيدنا عليّ قام شيخ إليه فقال: أخبرنا عن سيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئًا، ولا هبطنا واديًا إلا بقضاء الله وقدره. فقال الشيخ: فعند الله أحتسب عناي، ما أرى لي من الأجر شيئا، فقال: مه أيها الشيخ لقد عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في حالاتكم مكرهين ولا مضطرين، فقال الشيخ: فكيف والقضاء والقدر ساقنا؟ فقال: ويحك لعلك ظننت قضاءً لازمًا وقدرًا حتمًا لو كان ذلك كذلك حتمًا لبطل الثواب والعقاب والوعد والوعيد والأمر والنهي ولم تأت لائمة من الله لمذنب ولا محمدة لمحسن ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء ولا المسيء أولى بالذم من المحسن تلك مقالة عُبَّاد الأوثان وجنود الشيطان وشهود الزور أهل العمى عن الصواب وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها إن الله أمر تخييرًا ونهى تحذيرًا وكلف تيسيرًا ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص :٢٧].

فقال الشيخ: فما القضاء والقدر اللذان ما سرنا إلا بهما؟ فقال هو الأمر من الله والحكم ثم تلا قوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣][(١)].

(١) انظر تاريخ الجدل للشيخ أبي زهرة (١٠٧- ١٠٨).

ويذهب كثير من أهل العلم إلى أن مسألة القدر والخوض فيها إنما جاء من خارج الجزيرة العربية أعني من البلاد التي فتحها المسلمون واختلطوا فيها بأرباب الديانات الأخرى... ويذكرون أن أول من قالَ بالقدر: «**معبد الجهني**»، وقد ورد التصريح بذلك في رواية لمسلم عن ابن بريدة عن يحيى بن يعمر قال: «**كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني**» (١).

ومعنى أول من قال بالقدر أي ينفي القدر وقد أخذ القول بنفي القدر عن معبد الجهني «**غيلان الدمشقي**» وكان قبطيًّا قدريًّا من بلغاء الكتاب قال عنه الساجي: كان قدريًّا داعية دعا عليه عمر بن عبد العزيز فقتل وصُلب وكان غير ثقة ولا مأمون وكان مالك ينهى عن مجالسته قلت (أي ابن حجر) وكان الأوزاعي هو الذي ناظره وأفتى بقتله وقال رجاء بن حيوة قتله أفضل من قتل ألفين من الروم» (٢).

والذي يهمنا أن نرصده هو أن أول من قال بنفي القدر معبد الجهني وأنه أخذ الفكرة من رجل يقال له «**سوسن النصراني**» الذي لم يجرؤ أن يذيع الفكرة في المجتمع الإسلامي فأخذها معبد الجهني وتولى نشرها، ثم بعد ذلك نادى بها غيلان الدمشقي، الذي كان نصرانيًّا وجاهر بمذهبه وتأثر به بعض المسلمين.

وكان نفي القدر ومرتكب الكبيرة والتكفير بالمعصية والاختلاف حول الصفات وحول كلام الله ، القرآن الكريم هل هو مخلوق أو غير مخلوق؟ وحول الجبر والاختيار وهل الإنسان مسيرٌ أو مخير؟ من المسائل التي شغلت المسلمين كثيرًا وتسبب عنها التفرق والجدال.

المسألة التاسعة: حديث افتراق الأمة وما دار حوله:

روى الإمام أحمد وأبو داود من رواية معاوية رضي الله عنه قال: قام فينا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١/١٥٠- ١٥٦).

(٢) لسان الميزان لابن حجر (٤/٤٢٢).

رسول الله ﷺ فقال: «**إلا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة**»[(١)].

وروى أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**تفترق اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**»[(٢)].

موقف العلماء من هذه الأحاديث:

أولًا: رفض هذه الأحاديث جملة وتفصيلاً:

ممن ذهب إلى هذا الإمام ابن حزم في الفصل.. يقول: «**هذان حديثان لا يصحان أصلًا من طريق الإسناد وما كان هكذا فليس بحجة عند من يقول بخبر الواحد فكيف بمن لا يقول به**»[(٣)].

ثانيًا: قبول الأحاديث ورفض التنصيص على الناجية والهلكى بعض العلماء قَبِلَ الأحاديث ولكنه رفض الزيادة التي تنص على الهلكى والناجية، ويمثل هذا الفريق «**ابن الوزير**» في كتابه «**العواصم والقواصم**» حيث يقول: إياك أن تغتر بزيادة كلهم في النار إلا واحدة فإنها زيادة فاسدة ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة، والذين يرفضون هذه التكملة لهم سند من الرواية التي تذكر أن اثنتين وسبعين فرقة في الجنة وواحدة في النار فإن هذا التذييل هو نقيض التذييل المشهور الذي يذكر أن الفرق كلها في النار إلا واحدة،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه باب: شرح السنة من كتاب السنة الحديث رقم (٤٥٩٧) (٥/٥، ٦) عن معاوية وأحمد في المسند عن أنس بن مالك (٣/١٢٠) وله شاهد عند الترمذي في كتاب الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه باب: افتراق الأمم الحديث (٣٩٩١)، والترمذي كتاب الإيمان وقال حديث حسن صحيح. انظر مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة (ص ١٣، ١٤).

(٣) انظر تاريخ الفرق الإسلامية (ص ١٩).

ويمكن أن يقال إن الروايتين تعارضتا فتساقطتا، وبقى صدر الحديث مقبولاً.

٣- قبول الحديث مع رفض مفهوم العدد:

هناك من قَبِلَ هذه الأحاديث ولكنهم رفضوا مفهوم العدد الذي يعني في نصوص متعددة التكثير، وعندهم أن النبي ﷺ أخبر أن اليهود ستفترق فرقًا كثيرة وكذلك النصارى، وأن أمته ستفترق أكثر منهما، دون حصر لعدد معين لأي من الطوائف الثلاث، واستعمل لفظ السبعين للدلالة على الفروق في هذه الكثرة بين الأمم الثلاث (١).

إلا أننا نلاحظ:

أولًا: أن هذه الفرق على كثرتها كما أخبر النبي ﷺ ليست خارجة عن الإسلام وإنما هي من أمة الإسلام، بدليل قول النبي ﷺ وستفترق «أمتي»، فلم يكفرهم النبي ﷺ، وإنما أبقاهم في عموم الأمة، أمة التوحيد ونحن نبدي تلك الملاحظات لنقف أمام نزعة التكفير عند البعض لأناس من أمة الإسلام فاختلافهم لا يخرجهم عن الإسلام.

ثانيًا: يتبين لنا خطأ من صدر كتابه بهذه الأحاديث ثم فصَّل ونزَّل العدد على فرق بعينها كما فعل الشهرستاني في الملل والنحل والبغدادي في الفرق بين الفرق، لأن الذين فعلوا ذلك تعسفوا في تحديد الفرق ليناسب العدد في الأحاديث، ونحن نقول لهم: وماذا لو نشأت فرق جديدة بأسماء جديدة على نفس الشروط التي وضعتموها في تعداد الفرق؟ ولذلك يبقى مفهوم العدد الوارد في الأحاديث يراد به التكثير لا العدد بذاته حتى نخرج من دائرة التحديد المؤدية إلى التناقض، ومخالفة العدد من جهة، وواقع نشأة الفرق من جهة أخرى، والتعصب من جهة ثالثة ؛ لأن كل فرقة تدعي أنها الفرقة الناجية دون سواها.

---

(١) انظر: بتصرف تاريخ الفرق الإسلامية (ص ١٩- ٢٦) للدكتور محمود مزروعة.

ثالثًا: أن هناك بعض الفرق خرجت أصلاً عن الإسلام، ومن ثمَّ فالحق يقتضي أن لا ندخل هذه الفرق في عدد الفرق الإسلامية، وإنما نقول الفرق المنتسبة إلى الإسلام، مثل غلاة الشيعة والبابية والبهائية والإسماعيلية وغيرهم.

«**رابعًا**: يجب أن نفسح المجال لرواية أخرى وردت ضمن حديث الافتراق تفيد أن كل هذه الفرق في الجنة إلا واحدة، يقول الدكتور عبد الحليم محمود: «**ولكن مما يدعو إلى الارتياح ويثلج الصدور أن الشعراني في ميزانه**» روى من حديث ابن النجار وصححه الحاكم بلفظ غريب وهو «**ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا واحدة**» وفي رواية عن الديلمي «**الهالك منها واحدة**».

وفي هامش الميزان عن أنس عن النبي ﷺ: «**تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة**» وما في هامش الميزان هذا مذكور في تخريج أحاديث مسند الفردوس «**للحافظ ابن حجر**» ولفظه: «**تفترق على بضع وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا واحدة وهي**: «**الزنادقة**» أسنده عن أنس.

وقال صاحب كشف الخفاء: «**ولعل وجه التوفيق أن المراد بأهل الجنة في الرواية ولو مآلًا . . . فتأمل**» [(١)].

* * *

---

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام (١/١٠٨- ١٠٩)، الطبعة الرابعة ١٩٧٧م الدار المصرية. وانظر: للأهمية كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني (١/١٤٩ - ١٥٠) مكتبة الغزالي. دمشق.

الفصل الأول

وجود الله بين المثبتين والمنكرين

ويشتمل على :

المبحث الأول : هل أنكر العرب وجود الله .

المبحث الثاني : حديث القرآن عن وجود الله .

المبحث الثالث : استدلال المتكلمين على وجود الله .

المبحث الرابع : استدلال الفلاسفة على وجود الله .

المبحث الخامس : شبه المنكرين للألوهية والرد عليهم .

المبحث الأول

هل أنكر العرب وجود الله ؟

إن وجود الله حقيقة لا تحتاج إلى برهان فهي فطرة فطر الله الناس عليها ، ولذلك فإن القرآن الكريم لم يكن من أهدافه إثبات وجود الله ولا من أهداف الرسول ﷺ، لأن العرب الذين ظهر فيهم النبي ﷺ جميعهم على الاعتقاد في وجود الله ، يقول سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، والآيات كثيرة في القرآن الكريم التي تبين لجوء المشركين إلى الله لكشف ما بهم من ضر .

يقول ابن رشد : «**إن العرب كلها تعترف بوجود الباري سبحانه وتعالى**» [(١)].

والشهرستاني في الملل والنحل يقول : «**وشبهات العرب كانت مقصورة على شبهتين :**

إحداهما: إنكار البعث .

ثانيهما: بعثة الرسول [(٢)].

ويقول في نص آخر في كتابه نهاية الإقدام : «**وأما تعطيل الصانع العالم القادر الحكيم فلست أراها مقالة لأحد ولا أعرف عليها صاحب مقالة إلا ما نقل عن شرذمة قليلة من الدهرية أنهم قالوا : العالم كان فى الأزل أجزاء مبثوثة تتحرك على غير استقامة واصطكت اتفاقاً فحصل عنها العالم الذى نراه ، ودارت الأكوار وكرت الأدوار**

---

(١) منهاج الأدلة (ص ١٢٨- ١٢٩) مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني بهامش الفصل (١٠٥/٤).

وحدثت المركبات ، ولست أرى فى صاحب هذه المقالة ممن ينكر الصانع بل هو يعترف بالصانع ولكنه يجعل سبب وجود العالم على البخت والاتفاق احترازاً من التعليل» [١].

والشهرستاني حين يذهب إلى أنه لا يعرف أحداً عطل العالم عن صانعه إلا الدهرية ، فهؤلاء ليسوا من العرب ، لأن الكلام الذي نقله الشهرستانى عنهم لا يتناسب مع العقلية العربية بدليل قول الشهرستانى: «لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفى الشريك)(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» [٢].

فإذا كان الأمر كذلك فعلام يحمل قوله تعالى على لسان الدهريين: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٤].

إن الآية تعبر عن العرب الذين أنكروا البعث بعد الموت ، ولم ينكروا وجود الله ، أما الذين أنكروا وجود الله فهم الدهريون من الفلاسفة الذين أنكروا وجود الله ، فى غير البيئة العربية على اعتبار أن القرآن لم ينزل للعرب خاصة وإنما للناس كافة ، ومن ثم فهو يعبر عن عقائد العرب وغير العرب .

يقول ابن كثير فى تفسيره للآية السابقة: «هذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد وتقوله الفلاسفة اللإلهيون منهم، وتقوله الفلاسفة الدهرية المنكرون للصانع» [٣] .

والألوسي يذكر في تفسيره لهذه الآية أن الذين ورد ذكرهم فيها «معترفون بوجود الله سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيراً» [٤].

وهذا التفريق من ابن كثير والألوسي يوضح لنا أن العرب لم تنكر وجود

---

(١) نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ١٢٣- ١٢٤).

(٢) المصدر السابق (١٢٣/ ١٢٤) وانظر موافقة صريح المعقول للمنقول (٧٣/٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٠-١٥١).

(٤) روح المعاني للألوسي (١٣٥/٢٥).

الله حتى الدهريين منهم لأننا لم نعثر على نصوص فى خطب العرب وأشعارهم ينكرون فيها الله عز وجل، فكل ما ورد عنهم شعرًا أو خطبًا فيه ذكر للدهر وتقلباته وغدره وفي الوقت نفسه نجد في أشعارهم ذكراً لله جل وعلا على اعتبار أنه الفاعل المتصرف المدبر للأمور كلها ، مع اعتقادهم فى الشركاء له سبحانه .

ولنأخذ مثالاً يوضح لنا أن العرب لم تنكر وجود الله وإن نسبت بعض الحوادث للدهر .

يقول زهير بن أبى سلمى :

بدا لى أن الناس تفنى نفوسهم وأموالهم ولا أرى الدهر فانياً

وفى نفس القصيدة يقول :

بدا لى أن الله حق فزادنى إلى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا
ألم تر أن الله أهلك تبعًا وأهلك لقمان بن عاد وعاديا
وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى وفرعون أردى جنده والنجاشيا (١)

في قصيدة واحدة ينسب البقاء إلى الدهر ولكنه فى الوقت نفسة يرد الأمور كلها لله .

ويبدو أن جمع العرب بين الاعتراف بوجود الله وبين نسبتهم الحوادث للدهر جرى مجرى العادة لا مجرى العقيدة فهم من ناحية العقيدة يعترفون بوجود الله ويشركون معه المظاهر الأخرى من أصنام وكواكب وغيرها ، ومن ناحية العادة يذكرون الدهر وينسبون إليه بعض الأمور ، بل ويسبونه أحياناً كما يفعل البعض الآن فى مثل قولهم **«الدنيا لا تترك أحداً فى حاله»** أو **«هكذا الدنيا»** حين يخبر البعض بموت شاب أو فتاة أو ذهاب مال وخلافه ، مع اعتقاد القائل تمام الاعتقاد بالله الواحد وأن الدنيا لا تفعل ولا تنفع ولا تضر .

ومع هذا التقرير لا ينبغى أن يفهم كلامنا على أنه ليس هناك من ينكر

(١) شرح زهير بن أبي سُلمى (ص ٢٠٩).

وجود الله .. كلا فهناك بعض الشراذم فى كل عصر ومصر ، فسدت فطرهم ، وأنكروا وجود الله ، ولكن نؤكد أنه ليس هناك من ينكر وجود الله فى البيئة العربية حين نزول الوحى ، بنصوص القرآن الكريم ، وما ورد عن الأئمة فى هذا الشأن ، وسوف نفرد كلاماً مستقلاً نناقش فيه الماديين القدامى والمعاصرين الذين ينكرون وجود الله ويثيرون الشبهات ، فى وجه المؤمنين الموحدين .

* * *

المبحث الثانى

حديث القرآن الكريم عن وجود الله

كما يعبر بحق الإمام الدكتور عبد الحليم محمود «**أنه يمكن أن يؤخذ من القرآن أدلة على وجود الله وإن لم يكن ذلك هدفاً من الأهداف القرآنية وإذا نسقنا الأدلة ونظمناها فإنما يرجع ذلك إلى استنتاج من نصوص هدفها الصحيح بيان عظمة الله وتدبيره وهيمنته على كل ما فى العالم من صغيرة وكبيرة ، وبيان عناية الله ورعايته وإحكامه المحكم وإبداعه المتقن لكل ما يسرى فى العالم من قوانين ونواميس ، هذا فى الحقيقة هو هدف القرآن من النصوص التى يتحدثون عنها بمناسبة إثبات وجود الله**» (١).

وسوف نعرض طرفاً من تلك النصوص التي استقى منها العلماء الأدلة على وجود الله فيما يعرف بتوحيد الربوبية أى أن خالق الأشياء كلها هو الله عز وجل .

يقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة :٤-٧].

هذه الآيات تقرر أن السموات والأرض وما فيهما مخلوق وأن الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الله تعالى وأنه جل شأنه مدبر هذا الوجود كله فهو الذي يوجد ويعدم ويعطي ويمنع ويعز ويذل ، لأنه هو عالم الغيب والشهادة وهو

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ٧٢).

العزيز الذي لا يغلب الرحيم بخلقه الذي أحسن كل شيء خلقه وأبدعه [١].

ويقول سبحانه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة :٥٧-٦١].

ويقول عز وجل: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة :١٦٤].

ويقول سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور :٣٥-٣٦].

ويقول سبحانه: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم :١٠].

والقرآن الكريم يؤكد الدلالة من الخلق على الخالق لأن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علة ولا يمكن أن يوجد نفسه، ولم يثبت أن أحدًا ادعى أنه خلق الكائنات أو خلق نفسه.

إن من ينظر إلى ما ترشد إليه هذه الآيات وغيرها كثير ، نظرًا سليمًا بعيدًا عن التعصب والهوى ومن يبحث وينقب في عجائب الصنعة المشاهدة وبديع إتقانها ليدرك إدراكًا قويًا ويؤمن ويصدق بأن لهذا العالم ربًّا خالقًا.

وقد وردت في القرآن الكريم أدلة ساقها الله على لسان بعض أنبيائه ورسله استنبط العلماء منها الأدلة على وجود الله، مثل الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون عليه اللعنة.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) في العقيدة الإسلامية (ص١٤) لأستاذنا الدكتور عوض الله حجازي. مطبوعات جامعة الإمارات.

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء :٢٣-٢٩].

في هذه الآيات استدل موسى عليه السلام على وجوده سبحانه بدلالة الصنعة على الصانع والأثر على المؤثر ولكن فرعون لما قامت عليه الحجة، لجأ إلى منطق القوة والتهديد والوعيد ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء :٢٩].

وسوف نكتفي ببعض هذه الأدلة، ونرجئ القسم الأكبر منها عند عرضنا لشبهات الماديين والملحدين المنكرين لوجود الله من القدامى والمحدثين.

وقد سار السلف رضوان الله عليهم على طريقة القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ، فها هو الإمام أبو حنيفة جاء إليه رجل فقال: ما الدليل على الصانع؟ قال: **«أعجب دليل النطفة التي في الرحم والجنين في البطن يخلقه الله في ظلمة البطن وظلمة الرحم قالبًا منطبعًا ليطبع الجنين فيه فيلزم أن يكون الولد إما ذكرًا وإما أنثى، ومرة توأمين وطورًا ثلاثة، وتريد أن تلد فلا تلد، وتريد الذكر فتكون الأنثى، وتريد الأنثى فيكون الذكر على خلاف اختيار الأبوين، فعرفنا قطعًا أنه قدرة قادر عليم حكيم وأن الفلاسفة ينادون من مكان بعيد»** [1].

والإمام الشافعي يستدل على وجود الله **«بورق الفرصاد (التوت) طبعها ولونها سواء وريحها، فيأكلها دود القز فيخرج من جوفها الإبريسم ويأكلها النحل فيخرج من جوفها العسل، وتأكلها الشاة فيخرج من جوفها البعر، فانظر كيف تغيرت الحالات عليها فعرفت أنه فعل صانع عالم قادر يحول عليها الأحوال ويغير التارات»** [2].

وهذا الاستدلال هو استدلال العلماء بالله الذين يأخذون من عجيب خلق الله سبحانه وتعالى الدليل على وجوده ووحدانيته.

---

(١) مفيد العلوم ومبيد الهموم للخوارزمي (ص١٢).

(٢) المصدر السابق (ص ١٢).

المبحث الثالث

استدلال المتكلمين على وجود الله:

إذا كانت الأدلة على وجود الله واضحة في الكون والآفاق والأنفس فإن علماء الكلام دافعوا قديمًا عن العقيدة الإسلامية، وصاغوا أدلة يدافعون بها عن وجود الله في وجه الملحدين.

يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم: «**لقد أرغمت التحديات متكلمي الإسلام على توجيه أنظارهم إلى المباحث التي يدور فيها الاحتكاك بين الإسلام وتلك العقائد، لقد كان لهذا العلم في هذا المجال هدف جليل تمثل في المحافظة على عقائد المسلمين وكان عليه أن يواجه أعتى أعداء الإسلام وأخطرهم وأقواهم سلاحًا وأشدهم تمكنًا وأكثرهم تحالفًا وأوسعهم تنوعًا**» [(١)].

وقد صاغ المتكلمون أدلتهم على وجود الله، وأشهر ما يستدلون به:

دليل الحوادث:

يقول الإمام الأشعري: من قصد إلى برية لم يجد فيها قصرًا مبنيًا فانتظر أن يتحول الطين من حالة الآجر وينتضد بعضه على بعض بغير صانع ولا بان كان جاهلاً وإذا كان تحول النطفة علقة ثم مضغة ثم لحمًا ودمًا وعظمًا أعظم في الأعجوبة كان أولى أن يدل على صانع النطفة ونقلها من حال إلى حال [(٢)].

والإمام الباقلاني من المتكلمين يستدل بدليل الحدوث وتغير الموجودات من حال إلى حال، ويعزو هذا الاستدلال إلى الخليل إبراهيم عليه السلام في حجاجه مع قومه ذلك بأنه لما رآها متغيرة من حال إلى حال علم أنها محدثة

(١) انظر: عوامل وأهداف نشأة علم الكلام (ص ٣١٠) طبعة مجمع البحوث الإسلامية.
(٢) اللمع في الرد على أهل البدع للأشعري (ص ١٤٢) تحقيق د/ حمودة غرابة.

متطورة مخلوقة لله سبحانه وتعالى وأن الله هو الذي خلقها فقال عند ذلك: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام :٧٩][(١)].

ويعلق الباقلاني على قول النبي ﷺ فيما رواه البخاري عن عمران بن حصين قال: إني عند النبي ﷺ فدخل ناس من أهل اليمن فقال: «**اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم**»، قالوا: قبلنا جئنا لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان. قال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء**» [(٢)].

يعلق الباقلاني على هذا الحديث بقوله: «**قد بيَّن نبينا ﷺ** بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة» [(٣)].

ويلاحظ أن الباقلاني يرجع إلى نصوص الكتاب والسنة في الاعتماد على حدوث العالم وأن محدثه هو الله عز وجل.

يقول الشهرستاني: «**وقد سلك المتكلمون طريقين في إثبات الصانع تعالى وهو الاستدلال بالحوادث بإمكان الممكنات على مرجح لأحد طرفي الإمكان ويدعي كل واحد في جهة الاستدلال ضرورة وبديهة**» [(٤)].

ودليل الحدوث الذي يستدل به المتكلمون صياغته كالآتي:

العالم ينقسم إلى جواهر وأعراض ولا يخرج عنهما.

والأعراض حادثة والدليل على حدوثها أننا نشاهدها موجودة بعد أن لم تكن كحركة الجسم بعد سكونه فهذه الحركة ثابتة بالمشاهدة، وسكونه

---

(١) انظر: الإنصاف للباقلاني (ص ٣٠-٣١).

(٢) صحيح البخاري، باب: وكان عرشه على الماء (١٥٠/٩) طبعة الشعب.

(٣) الإنصاف للباقلاني (ص ٣٠- ٣١).

(٤) نهاية الإقدام (ص ١٢٤- ١٢٥).

حادث ؛ لأنه بمجيء الحركة قد انعدم ولو كان قديمًا لاستحال عليه العدم ؛ لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه.

والجواهر كذلك حادثة لأنها لا تخلو عن الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث أما أنها لا تخلو عن الحوادث فلأنها لا تخلو عن الحركة والسكون، وهما حادثان فالجواهر لا تخلو عن الحوادث [١].

إذا ثبت هذا فكل حادث لا بد له من محدث، وهذا بالبداهة ، ولا يصح أن يكون المحدث للعالم نفسه إذ أنه يصبح حينئذ متقدمًا على نفسه ومتأخرًا عنها مخلوقًا وهذا باطل؛ لأن كون الشيء الواحد متقدمًا على نفسه ومتأخرًا عنها في وقت واحد باطل بالبداهة.

هذا المحدث للعالم الموجد له لا بد أن يكون مغايرًا له في صفاته فلا يكون حادثًا بل يجب أن يكون قديمًا.

هذا المحدِث للعالم هو الله تعالى [٢].

والاستدلال بحدوث العالم على وجود الله تعالى، اتفق المتكلمون عليه من معتزلة وأشاعرة وماتريدية [٣]، على خلافات يسيرة في صياغة هذا الدليل فيما بينهم.

* * *

(١) انظر: الوحدانية لأستاذنا الدكتور بركات دويدار (ص ٣٤٩- ٣٥٠).

(٢) انظر: في العقيدة الإسلامية (ص١٥- ١٦) لأستاذنا عوض الله حجازي.

(٣) الوحدانية (٣٥٠) وانظر: المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية (ص٣٥- ٣٦) لأستاذنا الدكتور يحيى هاشم.

المبحث الرابع

استدلال الفلاسفة على وجود الله «دليل الإمكان»

يستدل الفلاسفة بدليل الإمكان على وجود الله، ومفاد هذا الدليل أن الممكنات الموجودة ممكنة بداهة ؛ لأنها مركبة من الممكن ، والمركب من الشيء الممكن يكون ممكنًا، وكل ممكن يحتاج إلى سبب يعطيه الوجود، ويترتب على هذا أن جملة الممكنات محتاجة بتمامها إلى سبب يوجدها ويعطيها الوجود.

هذا السبب إما أن يكون عينها أو جزء منها أو غيرها.

أولًا: لا يجوز أن يكون السبب عينها؛ لأنه يلزم عليه تقدم الشيء على نفسه وهذا باطل.

ثانيًا: لا يجوز أن يكون السبب جزء من الممكنات ؛ لأنه يترتب عليه أن يكون الشيء علة لنفسه ولما سبق، وهذا باطل.

ثالثًا: إما أن يكون سبب الممكنات غيرها، وهذا الغير:

١- إما أن يكون هو المستحيل وهذا باطل؛ لأن المستحيل معدوم وغير موجود وفاقد الوجود لا يعطي الوجود.

ب- إما أن يكون الذي سبب الموجودات هو واجب الوجود الذي أعطى الممكنات وجودها، وهذا الواجب الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى هو الله سبحانه [(١)].

يقول ابن سينا: «كل موجود إذا التفت إليه من حيث ذاته من غير التفات إلى غيره إما أن يكون بحيث يجب له الوجود في نفسه أو لا يكون.

(١) انظر: في صياغة دليل الفلاسفة في العقيدة الإسلامية (ص١٩- ٢٠).

فإن وجب فهو الحق بذاته الواجب الوجود من ذاته وهو القيوم.

والثاني: أي الموجود الذي لا يجب له الوجود من ذاته وهو الممكن. فكل موجود:

إما واجب الوجود بذاته، وهذا مستحيل عليه العدم.

وإما ممكن الوجود بذاته، وهذا يحتاج إلى غيره لأن الممكن لا وجود له من ذاته.

فما حقه في نفسه الإمكان ليس يصير موجودًا من ذاته فإنه ليس وجوده من ذاته أولى من عدمه من حيث هو ممكن فإن صار أحدهما أولى فلحضور شيء أو غيبته فوجود كل ممكن هو من غيره» [(١)].

بين المتكلمين والفلاسفة:

ينطلق المتكلمون من دليل الحدوث إلى أن العالم حادث وكل حادث لا بد له من محدِث، والمحدث للعالم هو الله عز وجل.

أما الفلاسفة فعندهم: **«أن الموجودات كلها ما عدا الله سبحانه ممكنة ولإمكانها تحتاج إلى غيرها في وجودها، وغير الممكن هو الواجب بذاته لأن الواجب بغيره ممكن من حيث ذاته واحتياجها ثابت سواء أكانت قديمة أم حادثة لأنه لا مانع عندهم أن يكون الشيء قديمًا بالزمان أي لا أول لوجوده، حادثًا بالذات أي يحتاج إلى غيره في وجوده»** [(٢)].

نقد ابن تيمية لدليلي المتكلمين والفلاسفة:

تناول ابن تيمية ممثل المدرسة السلفية دليل المتكلمين والفلاسفة على وجود الله عز وجل بالنقد مبينًا أن طريقة القرآن الكريم هي الأسلم والأقوم

---

(١) انظر: الإشارات لابن سينا (ص١٩- ٢٠) وانظر: الوحدانية (ص٣٥٨).

(٢) الوحدانية (ص٣٥٨).

وأن الناس لا يحتاجون إلى هذه المقدمات ليصلوا إلى وجود الله، يقول:

«إن إثبات الصانع في القرآن بنفس آياته التي يستلزم العلم بها العلم به كاستلزام العلم بالشعاع: العلم بالشمس من غير احتياج إلى قياس كلي يقال فيه وكل محدَث فلا بد له من محدِث أو كل ممكن فلا بد له من محدِث أو كل ممكن فلا بد له من مرجح أو كل حركة فلا بد لها من علة غائية أو فاعلية ومن غير احتياج إلى أن يقال سبب الافتقار إلى الصانع هل هو الحدوث فقط أو الإمكان؟» [(١)].

ثم يقول: **«إن الإنسان يعلم فقر نفسه وحاجتها إلى خالقه من غير أن يخطر بباله أنها ممكنة، والممكن الذي يقبل الوجود والعدم أو أنها محدثة والمحدث مسبوق بالعدم بل قد يشك في قدمها أو يعتقده وهو يعلم فقرها وحاجتها إلى بارئها، والقلب بفطرته يعلم ذلك وإن لم يخطر بقلبه وصف الإمكان والحدوث.**

وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور :٣٥].

قال جبير بن مطعم:

«لما سمعتها أحسست بفؤادي قد تصدع وهو استفهام إنكار يقول أوجدوا من غير مبدع؟ فهم يعلمون أنهم لم يكونوا من غير مكوِّن، ويعلمون أنهم لم يكونوا نفوسهم، وعلمهم بحكم أنفسهم معلوم بالفطرة بنفسه» [(٢)].

* * *

(١) انظر: مجموع الفتاوي توحيد الربوبية (٣/٩).

(٢) توحيد الربوبية (٢/١٠- ١١).

المبحث الخامس

شبه منكري الألوهية والرد عليهم

تمهيد:

في هذا المبحث نعرض شبه المنكرين للألوهية، وخطتنا في هذا المبحث أن نعرض الشبهة متتبعين من قال بها من الماديين القدامى والدهريين والماديين المحدثين، جامعين العناصر التي يشترك فيها القدامى مع المعاصرين، ثم تفنيد تلك الشبهة أولاً من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة مستأنسين بفهوم علماء الإسلام واستنباطهم من القرآن والسنة في الرد على الماديين إن في القديم أو الحديث، ثم بعد ذلك نعمد إلى إبراز موقف العلم الحديث من الشبهة التي عرضها الماديون، ولكن لنثبت بطلان بعض الآراء العلمية بما يناقضها في نفس المجال وبنفس المنهج العلمي وقد طبقنا ذلك المنهج العلمي في نقد القائلين بقدم المادة، وفي نقد القول بالصدفة في خلق الكون، وأخيرًا في نقد نظرية التطور.

وهذا النقد لمنكري الألوهية في شبههم الثلاث من العلم الحديث لا يعد تدعيمًا لوجهة النظر الإسلامية بقدر ما هو اعتراف بالحقائق التي جاء بها القرآن الكريم [١].

وقد قسمت شبه المنكرين إلى ثلاث شبه:

الشبهة الأولى: ادعاء أزلية الكون وصدوره عن المادة بدون حاجة إلى خالق.

---

(١) انظر: المنهاج القرآني (ص ٧٧، ٧٨) لأستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلي الناشر المكتبة القومية الحديثة بطنطا.

الشبهة الثانية: القائلين بالصدفة. أي أن الكون خلق بالصدفة وليس من الله.

الشبهة الثالثة: القائلين بالتطور.

وهذه الشبه الثلاث، تختلف في أشكالها وتتحد في مضمونها الذي ينتهي إلى إنكار الخالق سبحانه وتعالى، وكان يمكن أن نكتفي بعرض الشبهة الأولى والرد عليها، ولكن أردنا أن نحاصر الماديين في كل جزئية من الجزئيات التي زعموا أنها تؤيد إنكار وجود الله.

ولقد حاولنا في الرد على شبه المنكرين لوجود الله أن نسهم في الدفاع عن العقيدة الإسلامية آملين أن نضع لبنة في صرح بناء علم كلام إسلامي جديد يستخدم مصطلحات العصر الحديث مرتكزًا في الوقت ذاته على الكتاب والسنة كما فعل أسلافنا عليهم رضوان الله.

* * *

عرض شبه القائلين بأزلية المادة والرد عليهم

الشبهة الأولى

أزلية الكون وقيامه بنفسه بدون خالق

إن ادعاء قيام الكون بنفسه ووجوده منذ الأزل، شبهة قال بها الماديون قديمًا وحديثًا، فالقدامى زعموا أن العالم قديم وأنه نشأ من عناصر مادية على اختلاف فيما بينهم في تحديد هذه العناصر بين الماء والهواء والنار والتراب أو هذه العناصر مجتمعة كما ذهب «أنبادوقليس» من الفلاسفة اليونان (١). وانتقلت هذه الآراء إلى من عرفوا بالدهرية في المجتمع الإسلامي (٢)، الذين ذهبوا إلى القول: **«بقدم العالم وأزليته وأنكروا العلة الفاعلية، وكانوا لا يقرون إلا بما أوجده العيان أو ما يجري مجرى العيان»** (٣).

واستمرت هذه النزعة المادية التي تقول بقدم العالم واكتفائه بنفسه على نحو آلي بدون حاجته إلى إله، إلى العصر الحديث الذي دعمت التجارب العلمية فيه النزعة المادية (٤)، وتساءل الطبيعيون لم لا تمد المادة نفسها إلى غير نهاية فنعتبرها الله؟

ولماذا نبحث للكون عن علة مفارقة له؟ وعبر أحد الماديين عن ذلك بقوله: **«إن كل شيء يفسر بالمادة والحركة وأنهما أزليتان أبديتان والعالم مدبر بقوانينهما وأن الكون ليس مدبرًا من إله»** (٥).

---

(١) انظر الفلسفة اليونانية: يوسف كرم (ص ١٢- ١٩، ٣٥ - ٤٣)، وقصة الفلسفة لديورانت (٧ ، ٨، ٢٤).

(٢) انظر: تاريخ الفلاسفة في الإسلام: دي بور (ص ١٥ ، ١٦).

(٣) انظر: الحيوان للجاحظ (٤/٨٩، ٩٠)، (٧/١٢، ١٣) وإخوان الصفا (٢/٤٥٥)، وانظر: مفيد العلوم ومبيد الهموم للخوارزمي (ص ١٠٦، ١٠٧)، المنقذ من الضلال للإمام الغزالي (ص٩٤).

(٤) انظر: مدخل إلى الفلسفة الحديثة (ص٣٨، ٣٩، ٢٧٠، ٢٧١).

(٥) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة (ص١٩١، ١٩٢)، ومدخل إلى الفلسفة (١٦٤، ١٦٥)، وانظر: الوجودية المؤمنة والوجودية الملحدة (ص ٦٢)، وانظر: العلم في منظوره الجديد (ص ٢٣- ٥٧).

وقامت فلسفات مادية كالماركسية التي تبنت قول الماديين الأوائل في نظرتهم إلى الكون وظهر هذا في تعليق «لينين» على عبارة «هيرقليطس» هذا العالم الذي هو سواء بالنسبة للجميع لم يخلقه إله من الآلهة، ولا واحد من البشر، ولكنه كان دائمًا كما هو اليوم وسيستمر دائمًا نارًا بمعايير لاندلاعها، ومعايير لخمودها [١].

يقول «لينين» تعليقًا على هذه العبارة عرض ممتاز لمبادئ المادية الديالكتيكية [٢]، ووصل الأمر بالماديين إلى أن أنزلوا المادة مكان الله وذهبوا إلى أن أهم الصفات التي يوصف بها الله وهي القدم والخلق وجدناها تضاف عادة للمادة فالله أمره نافذ وكذلك القوانين الآلية الميكانيكية [٣].

ويمكن وضع تلك الشبه في نقاط محددة هي:

أولًا: العالم قديم وأوجد نفسه بدون علة خارجية.

ثانيًا: لا وجود للإله.

ثالثًا: اعتبار أن المادة هي الله.

وسنفند تلك الشبه:

أولًا: بما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية.

ثانيًا: بما استنبطه علماء الإسلام من القرآن والسنة.

ثالثًا: بما انتهى إليه العلم الحديث في شأن قدم المادة.

رابعًا: مقارنة بين عبادة المادة، وعبادة الله.

---

(١) فلاسفة الإغريق (ص ٢٨).

(٢) الدفاتر الفلسفية للينين نقلاً عن النظرية المادية في المعرفة (ص ٦٥) روجيه جارودي وانظر: الفلسفة الماركسية اللينينية. ترجمة لويس اسكاروس، دار الثقافة ١٩٨١م.

(٣) انظر: أسس الفلسفة (ص ١٥٢) للدكتور توفيق الطويل، مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٥٥م.

أولاً: لقد نزل القرآن الكريم بخطاب شامل للبشرية كلها فكان يواجه المشرك كما كان يواجه الجاحد المنكر للألوهية وكان يواجه اليهود والنصارى.

وإذا كان وجود الله فطرة فُطر الناس عليها، فإن هناك بعض التراكمات على تلك الفطرة تحجب الإنسان عن معرفة الله رب العالمين، وكذلك فإن الأدلة القرآنية راعت في المقام الأول أن تزيل هذه التراكمات واستثارت ملكات الإنسان ووجهته نحو ربه عز وجل، ومع إثارة الفطرة اهتمت الأدلة القرآنية بلفت نظر الإنسان إلى الكون ونظامه ودقته وإبداعه، ومن هنا كانت أدلة القرآن الكريم هي جماع الأدلة وهي منبع الأدلة التي تمخضت عنها أقوال الحكماء في هذا الباب [(١)].

أ- دلالة الاختراع:

وهذه الأدلة تعني إثبات أن الله عز وجل خلق الكون كله لا على مثال سابق، وتهدف هذه الأدلة إلى إثبات حدوث العالم والرد على القائلين بقدمه وأزليته وهذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر هي قوله تعالى:

١- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة :٢١] .

٢- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة :١٦٤].

٣- ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا

(١) الفلسفة القرآنية (ص ٩٩) للعقاد، دار الإسلام، القاهرة، وانظر: الألوهية في الفكر الإسلامي (ص٧٥، ٧٦).

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

٤- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠].

٥- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

٦- ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ٩-١١].

٧- ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

٨- ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧].

هذه الآيات تقرر أن الكون لم يكن ثم كان بإرادة الله عز وجل وهذا الخلق تم بإرادته ومشيئته في الوقت الذي حدده، يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

وذلك لأن الله تعالى فعال لما يريد، وهذا الخلق والاختراع تم بالأمر «كن» يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

هذه الآيات مجتمعة تقرر أن الحياة لم تكن ثم كانت بأمر الله في الوقت الذي أراده ولفظ خلق إشارة إلى التكوين (١)، ويقرر المفسرون في هذه

(١) الألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١١١).

الآيات أن السموات والأرض كانتا معدومتين فأوجدهما الله، والممكنات باعتبار ذاتها وحدها تكون معدومة واتصافها بالوجود لا يكون إلا من واجب الوجود وهو الله تعالى [١].

والقرآن الكريم يؤكد الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق لأن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علة ولا يمكن أيضًا أن يكون هو علة صياغة نفسه [٢]، ولذلك ركز الله رب العالمين على خلقه للأشياء وإيجادها من العدم، ولم يثبت أن أحدًا ادعى أنه أوجدها، وهذه الآيات التي تحدثت عن خلق السموات والأرض من لا شيء كانت هي الملهمة لما صاغه علماء الإسلام من الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى.

يقول الأشعري: **«إن سأل سائل فقال: ما الدليل على أن للخلق صانعًا صنعه ومدبرًا دبره؟ قيل له: الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو في غاية الكمال والتمام كان نطفة ثم علقة ثم لحمًا ودمًا وعظمًا، وعلمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال، وإذا كان تحول النطفة علقة ثم مضغة ثم لحمًا ثم دمًا وعظمًا أعظم في الأعجوبة كان أولى أن يدل على صانع صنع النطفة ونقلها من حال إلى حال، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة :٥٨-٥٩] فما استطاعوا أن يقولوا بحجة أنهم يخلقون ما يمنون»** [٣].

ويرد على القائلين بقدم النطفة بناء على افتراض سؤالهم **«فإن قالوا فما يؤمنكم أن تكون النطفة لم تزل قديمة؟ قيل لهم: لو كان ذلك ما ادعيتم لم يجز أن يلحقها الاعتمال، والتأثير ولا الانقلاب والتغيير لأن القديم لا يجوز انتقاله وتغيره»** [٤].

فالأشعري قد استخدم دليل الحدوث والعناية للدلالة على أن كل ما سوى الله حادث وليس بقديم.

---

(١) انظر: الزمخشري (٢/٥٧٠)، وأبو السعود (٣/٥١٤، ٥١٥)، والألوسي (١٧/٣٤، ٣٥).
(٢) التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ٧٥).
(٣) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع (ص ١٨).
(٤) السابق (ص ١٩).

وسنجد أن المدرسة الأشعرية تستخدم دليل الحدوث في الاستدلال على عدم قدم العالم، والإمام «**الباقلاني**» استدل أيضًا بدليل الحدوث وتغير الموجودات من حال إلى حال وعزا هذا الاستدلال إلى الخليل إبراهيم عليه السلام في حجاجه مع قومه ذلك بأنه لما رآها متغيرة من حال إلى حال علم أنها محدثة متطورة مخلوقة لله تعالى وأن الله هو الذي خلقها فقال عند ذلك:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام :٧٩][(١)].

ويستطرد الباقلاني فيعلق على قول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري عن عمران بن حصين قال: إني عند النبي ﷺ إذ جاء قوم من بني تميم قال: «**البشرى يا بني تميم**»، قالوا: بشرتنا فأعطنا. فدخل ناس من أهل اليمن فقال: «**اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم**»، قالوا: قبلنا جئنا لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء**» [(٢)].

يعلق الباقلاني على هذا الحديث بقوله: «قد بيَّن نبينا ﷺ بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة» [(٣)].

وقد أطبق علماء الإسلام على الاستدلال بحدوث المخلوقات من لا شيء على وجود الخالق سبحانه وتعالى [(٤)]. وابن رشد في كتابه «**مناهج الأدلة**» يبين أن الأدلة على وجود الله تعالى التي دعا إليها الشرع واعتمدها صحابة رسول الله ﷺ تنحصر في جنسين:

---

(١) انظر: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به (ص ٣٠، ٣١) بتصرف ، طبعة الخانجي ١٩٦٣م.

(٢) صحيح البخاري، باب: وكان عرشه على الماء (١٥٠/٩) طبعة الشعب.

(٣) الإنصاف (ص ٣٠، ٣١) بتصرف.

(٤) انظر: أصول الدين للبغدادي (ص ٧٠) وانظر: الاقتصاد في الاعتقاد (ص ٢٩- ٤١).

الأول: دليل العناية أي عناية الله بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله.

الثاني: دليل الاختراع: أي اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقل ومن الآيات التي تتحدث عن الاختراع خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة [(١)].

والآيات التي أوردناها من هذا النوع فهي تقرر أن الكون مخلوق وله بداية ونهاية وأن مادته ليست أزلية وأن الله بدأه من لا شيء، وفي هذه الآيات من الأسرار ما لا يحصى لأن العقول لا تستطيع أن تدركها، إذ إن كيفية الخلق والإعادة من الأمور التي اختص بها الحق سبحانه [(٢)]، وقد أفرد لهذه الطريقة ابن تيمية صفحات كثيرة من مؤلفاته، يذكر أن الدلالة بالخلق على وجود الله وتوحيده طريقة الأنبياء عليهم السلام، وقد استدل بهذه الدلائل الخليل، وموسى عليهما السلام [(٣)]، إذ إن العلم بافتقار المحدَث أبين في العقل وأبْدَه له.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ **[الطور :٣٥]**.

يقول جبير بن مطعم: لما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها أحسست بفؤادي قد انصدع وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۝ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ **[الواقعة :٥٨-٥٩]**.

إذ كان كل من القسمين: وهو كونهم خلقوا من غير خالق.

وكونهم خلقوا أنفسهم معلوم الانتفاء بالضرورة. فإن الإنسان يعلم بالضرورة أنه لم يحدث من غير محدث وأنه لم يحدث نفسه، فلما كان العلم

---

(١) منهاج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد (ص ١٥٠، ١٥١)، تحقيق الدكتور محمود قاسم الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو ١٩٦٤م.

(٢) انظر: الألوهية في الفكر الإسلامي (ص ٩١) وصراع المذهب والعقيدة (ص ٢١٥، ٢١٦).

(٣) انظر: بتصرف دقائق التفسير لابن تيمية (٥/٢٠٢- ٢٠٤) الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

بأنه لا بد له من محدِث وأن محدِثه ليس إياه علمًا ضروريًّا ثبت بالضرورة أن له محدِثًا غيره وكل ما يقدر فيه أنه مخلوق فهو كذلك كالسماوات والأرض وغيرهما لأن الخلق يتضمن الحدوث والتقدير ففيه معنى الإبداع والتقدير [(١)].

وقد استدل العلماء بهذه الآيات في مناقشتهم للقائلين بقدم العالم من الدهريين ببطلان الترجيح بلا مرجح، والدور، والتسلسل [(٢)].

وإذا ثبت بالقرآن الكريم والسنة أن العالم حادث وأن الذي خلقه هو الله ، فإن العلم الحديث يثبت هو الآخر أن الكون له بداية وله نهاية وذلك عن طريق علم الفلك وعلم الفيزياء.

يقول أحد العلماء: «**إن أهم اكتشاف علمي في القرن العشرين أن الكون أصبح قابلًا للبحث باستخدام علمي الفيزياء والفلك**» [(٣)].

أولًا: دلالة علماء الفيزياء على حدوث العالم:

إن النظرة التي استند إليها الماديون في القول بأزلية المادة وإن الكون قائم بنفسه بدون خالق له أصبحت بعد الاكتشافات العلمية المثيرة تسمى بالنظرة القديمة.

أما النظرة الجديدة فإنها تثبت أن المادة ليست أزلية وأن الكون له بداية وعلة أولى نشأ عنها. يقول الفيزيائي «**أدموند ويتبكر** Edmund whittaker (**ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي ، فما الذي يميز تلك اللحظة عن غيرها من**

(١) انظر: بتصرف موافقة صريح المعقول للمنقول لابن تيمية (٣/١١٣، ١١٤).

(٢) انظر: المسائل الخمسون في أصول الدين للرازي (ص ٢٥- ٢٧)، وانظر: الإنصاف (ص ١٧، ٣٠- ٣٣)، وانظر: موافقة صريح المعقول للمنقول (٣/١١٧، ١١٨).

(٣) العلم في منظوره الجديد (ص ٥٩).

اللحظات في الأزلية؟ والأبسط أن نفترض خلقًا من العدم أي إبداع الإرادة الإلهية للكون من العدم» [(١)].

هذا هو العلم الذي يقرر أن الكون حادث ووراءه إرادة أخرجته من العدم وإن اكتشاف بعض القوانين العلمية الحديثة لينسف القول بأزلية المادة نسفًا، لإثبات حدوثها وصدورها عن إله حكيم.

من هذه القوانين ما يعرف بالقانون الثاني للديناميكا الحرارية ومفاد هذا القانون أن المادة إذا ضغطت سخنت وارتفعت درجة تعادلها الحراري وكلما ازداد عدد الانكماشات العظيمة للكون ازدادت حرارته ودرجة تعادله الحراري، وبما أن درجة حرارة الكون ودرجة تعادله الحراري محدودتان في الوقت الراهن فلا بد من أنه كانت له بداية، وإن مظاهر الكون المتمثلة في الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة كلها دليل واضح على أن أصل الكون وأساسه يرتبطان بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذا حدث من الأحداث، ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، فالقانون يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكون أزليًا ؛ لأن الحرارة لا توجد بنفسها، ولو كان أزليًا لكان باردًا وكان قد استهلك طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فيه [(٢)].

ثم إن هناك مواد مشعة في الكون وهي تفقد أجزاء منها في كل فترة زمنية بانتظام وتتحول إلى مواد أخرى غير مشعة ولو أن الكون أزليًا لكانت هذه المواد المشعة قد تحولت بكاملها [(٣)].

ويؤكد هذا الدكتور «**بول كلارنس أيرسولد**» أستاذ الطبيعة الحيوية ومدير

---

(١) العلم في منظوره الجديد (ص ٦٤).

(٢) انظر: العلم في منظوره الجديد (ص ٦٣)، وانظر الله يتجلى في عصر العلم (ص ٦)، القرآن يتحدى (ص ٣٩٥، ٣٩٦)، وانظر: الله جل جلاله (ص ١٦).

(٣) توحيد الخالق (٣/٢٦، ٢٧) عبد المجيد الزنداني، دار المجتمع ١٩٨٧م.

قسم النظائر والطاقة الذرية يقول: «**إن الأمر الذي نستطيع أن نثق به كل الثقة هو أن الإنسان وهذا الوجود من حوله لم ينشأ نشأة ذاتية من العدم المطلق بل إن لهما بداية ولا بد لكل بداية من مبتدئ كما أننا نعرف أن هذا النظام الرائع المعقد الذي يسود هذا الكون يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان، وإن معجزة الحياة في حد ذاتها لها بداية كما أن وراءها توجيهًا وتدبيرًا خارج دائرة الإنسان إنها بداية مقدسة وتوجيه مقدس وتدبير إلهي محكم**» (١). كل هذه الاكتشافات تثبت أن الكون ليس أزليًا وأنه لم يخلق نفسه بنفسه.

ثانيًا: دلالة علم الفلك على حدوث الكون:

إذا كان علم الفيزياء الحديثة قد أثبت عن طريق القوانين العلمية أن الكون له بداية فإن علم الفلك يؤكد ذلك.

يقرر الفلكي «**روبرت جاسترو** Robert Jasterow(**أن سلسلة الحوادث التي أدت إلى ظهور الإنسان بدأت فجأة وبعنف في لحظة معينة من الزمن وفي ومضة ضوء وطاقة**» (٢)، ويقرر علم الفلك أيضًا أن الكون يتسع بالتسلسل الدائم وأن كل مجاميع النجوم والأجرام السماوية تتباعد بسرعة مدهشة بعضها عن بعض ولا يمكن تفسير هذه الحالة إلا بالتسليم بأن الكون له بداية وكانت الأجزاء التركيبية مركزة ومجتمعة بعضها مع بعض ثم بدأت الحركة والحرارة، والتسليم بهذه القوانين العلمية، ثم إنكار أن يكون لهذا الكون إله كمن يدعي أن الأهرامات قامت بنفسها مع تسليمه بأن الأهرامات بناها المصريون منذ أربعة آلاف سنة (٣).

إن كل هذه الدلائل تثبت قيام العالم بالله سبحانه وتعالى وأن الكون نشأ من عدم.

---

(١) الأدلة الطبيعية على وجود الله ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم (ص ٣٨).
(٢) العلم في منظوره الجديد (ص ٦٤) وانظر: دراسة الأسفار المقدسة في ضوء المعارف الحديثة (ص ١٦٣).
(٣) انظر: الإسلام يتحدى بتصرف (ص ٥٠، ٥١)، وانظر: توحيد الخالق (ص ٢٦- ٢٩).

كيف تنشأ الحياة من المادة التي لا حياة فيها؟

إن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام :٩٥].

هذا إعلان من الله أنه أخرج الحي من الميت، يجب التسليم به ؛ لأنه لم يدع أحد إلى الآن ذلك.

وإن ادعاء خروج الحياة من اللاحياة بفعل الطبيعة أو بالتولد الذاتي قول يتناقض مع العقل، ومع العلم في آن واحد . أما تناقضه مع العلم، فلاستحالة كون المادة مصدر الحياة لخلوها من الحياة، وما كان خاليًا من شيء قوة وفعلاً لا يمكنه مطلقًا أن يكون مصدرًا له، والمادة خالية من الحياة بالقوة ؛ لأنها لو قدرت أن تبرز الحياة ذات يوم لقدرت أن تبرزها قبل ذلك؛ لأن طبائع الأشياء لا تتغير وإذا قدرت أن تبرزها قبل ذلك اليوم فإنها قادرة أن تبرزها الآن، ولا يمكن أن توجد في وقت آخر، وذلك مقرر في مبادئ علوم الطبيعة، أما خلو المادة من الحياة بالفعل فشيء ثابت وظاهر لأننا لم نر مادة جامدة أنبتت حياة [(١)].

أما تناقض القول بأن الحياة تخرج من اللاحياة مع العلم فيرجع إلى أن «**جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بخذلان وفشل ذريعين، ومع ذلك فإن من يُنكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر على أن مجرد تجمع بعض الذرات والجزئيات يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة الموجودة في الخلايا الحية؛ لأن كل خلية من هذه الخلايا قد بلغت درجة من التعقيد يصعب على العلماء فهمها ، وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية على سطح الأرض تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق،**

(١) انظر: دلائل التوحيد للقاسمي (ص ١٠١، ١٠٢)، وانظر: موقف العلم والعقل والعالم من رب العالمين للشيخ مصطفى صبري (١/٣٠٨- ٣١٠).

ولشخص أن يقبل أن الحياة نشأت بدون إله ولكنه حين يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازًا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذي خلق الأشياء ودبرها» (١)، ونحن قطعًا نسلم بداية بأن الكون مخلوق لله وأن الحياة تخرج من اللاحياة بإرادة الله، ولكن إذا كان الذين يدينون بالعلم وقوانينه هم الذين يردون على الملحدين بنفس منهجهم وطريقتهم، فإن المسلم عليه أن يستثمر تلك النقطة وأن يستأنس بردود هؤلاء العلماء بعد أن بنى يقينه على العلم الصادر من الله عز وجل (٢).

أما النقطة الثانية من الشبهة الأولى: وهي ادعاء عدم وجود الله:

فإن الله عز وجل يكذب الذين يزعمون ذلك؛ لأنه قد فطرهم على معرفته ووجوده ووحدانيته يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف :١٧٢-١٧٤]. وهذه الآيات تبين أن الله قد فطر الخلق على معرفته وتوحيده، ولذلك يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم :٣٠]، والمفسرون أكّدوا على أن هذه الآيات تبين أن الله فطر الناس على الإقرار بوجوده ووحدانيته، ولهذا كان أكثر الناس على أن الإقرار بالصانع ضروري فطري ؛ لأن اضطرار النفوس إلى الله أعظم من اضطرارهم إلى ما لا تتعلق به حاجتهم، ألا ترى أن الناس يعرفون من أحوال ما تتعلق به منافعهم ومضارهم كولاة أمورهم وأصدقائهم وأعدائهم ما لا يعلمونه

---

(١) انظر:بتصرف مقال الخلايا الحية تؤدي وظيفتها للدكتور «**رسل تشارلز أرنست**» ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم (ص ٧٧).

(٢) انظر: الألوهية في الفكر الإسلامي (ص٩٣، ٩٤).

من أحوال من لا يرجونه ولا يخافونه ولذلك فإن احتياج المخلوق للخالق أبين وأوضح ؛ لأنه الذي يأتيهم بالمنافع ويدفع عنهم المضار [(١)].

أما إنكار وجود الله فإنه لا يكون إلا بعد أن تغير الفطرة بفعل الإنس والجن، وتفسد مدارك السمع والبصر والعقل وهناك آيات كثيرة تثبت عدم الانتفاع بنعم الله من الناحية الإيمانية كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠] ، وهناك من الآيات ما يبين ذلك [(٢)].

ولكن هذا الفساد يزول عن الإنسان ويرجع إلى ربه حين يصيبه البأساء والضراء ففي ذلك الوقت تنقشع الغشاوة من على الفطرة ويعود الإنسان إلى ربه وقد صرح القرآن الكريم بذلك، يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [يونس :٢٢] .

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء :٦٧][(٣)].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل :٥٢-٥٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٤٢٢، ٤٢٣)، والرازي (١٥/٤٦- ٤٨)، وموافقة صريح المعقول للمنقول (٣/١٣٦).

(٢) انظر: سورة البقرة آية: (٨٨)، والأنفال آية: (٢٣)، والنساء آية: (١٥٥)، ومحمد آية: (١٦)، والفرقان: (٤٤)،وغيرها من الآيات الكثيرة. انظر: الإيمان لابن تيمية (٢٢- ٢٤) تحقيق الألباني ١٤٩٠هـ.

(٣) انظر: يونس: (١٢).

وهذه الآيات تبين أن الإنسان ساعة الضر وساعة الشدة لا يجد ملجأ ولا مفرًا إلا الله وللإنسان أن يتأمل التعبير القرآني في اللجوء إلى الله والاستعانة به والاستغاثة بقوته ورحمته، هذا التعبير: ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل :٥٣] فإن الآية تظهر أن الإنسان يجأر أي يرفع صوته بالدعاء والتضرع والاستغاثة، وهذا يعني أن الدافع الفطري والإحساس بأن الله هو المنقذ عميق وقوي ومسيطر على النفس البشرية ويظهر هذا الشعور حين يمس الإنسان أدنى بلاء (١).

ولذلك فإن «الشهرستاني» يعتبر أن أوضح الأدلة على وجود الله هو دليل الفطرة السليمة شهدت بضرورة فطرتها وبديهية فكرتها على صانع حكيم عالم قدير والناس إن غفلوا عن الفطرة في حال السراء فلا شك أنهم يلوذون به في حال الضراء ويستشهد بالآيات السابق ذكرها.

والرسل إنما هم مبعوثون لتذكية الفطرة وتطهيرها عن تسويل الشيطان، فإنهم الباقون على أصل الفطرة وما كان له عليهم من سلطان ولذلك قال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى :٩-١٠] ومن رحل إلى الله قربت مسافته حيث رجع إلى نفسه أوفى رجوع فعرف احتياجه إليه في تكوينه وبقائه وتقلبه (٢)، وابن تيمية في درء تعارض العقل مع النقل يولي كلام الشهرستاني اهتمامًا كبيرًا في الاستدلال على وجود الله (٣).

ولا يقولن قائل إننا نناقش قومًا كفروا بالله ورسله وكتبه فكيف نستدل لهم بآيات من القرآن الكريم؟

والحق أن القرآن حين نبه على الدلائل التي توصل إلى معرفته وخاصة دليل الفطرة لم يختص قومًا دون قوم ولم يخاطب نفسًا دون نفس وإنما خاطب الناس كلهم ؛ لأنه عالم بنفوسهم وتفكيرهم.

---

(١) انظر: المنهاج القرآني (ص ٨٨، ٨٩).

(٢) انظر: نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ١٢٤- ١٢٦).

(٣) موافقة صريح المعقول للمنقول لابن تيمية (٣/١٢٩، ١٣٠).

يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وإذا لم يقتنع الإنسان أيًّا كان زمانه ومكانه وتفكيره بكلام الله فهل يتصور أن يقتنع بغير كلام الله؟ الحق أن الله عز وجل بعد أن أودع القرآن الكريم الدلائل على وجوده ووحدانيته قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، أي: إذا لم يقتنع الملحد والكافر أمريكيًّا أو أوربيًّا أو روسيًّا بآيات الله ودلائله فلن يؤمن بشيء آخر. ثم إن القرآن كان يخاطب أهل مكة وهو يعلم أنهم على الكفر [(١)].

ولكن لأن أدلة القرآن الكريم تنفذ إلى النفس البشرية وتغيرها، كان خطاب الله لهؤلاء، وما على الذي يعرض كتاب الله إلا أن يتحلى باللغة المناسبة والفطرة التى نأخذ منها دليلاً على وجود الله من هذه الأدلة التي يتساوى جميع الناس فيها على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وتفكيرهم وفقرهم وغناهم، يلمح لهذا الدكتور «**فاروق الدسوقي**» في كتابه «**القضاء والقدر**» فيذكر أن ملحدي العصر يعمدون إلى إنكار الغيبيات لفقدهم الدليل المادي على وجودها فهم لا يؤمنون إلا بالمادة المحسوسة والمناهج التجريبية كوسائل للبحث، والقرآن الكريم يقدم لهؤلاء وسيلة تناسب ما يؤمنون به من الناحية الحسية، لا ليثبت لهم وجود الله ولكن ليأخذ منهم اعترافًا صريحًا أن الله موجود في أعماق نفوسهم، وإذا ثبت أن الإيمان موجود في أعماقهم فقد أثبت ما ينتهي إليه هذا الإيمان، والمنهج الذي يقدمه القرآن لكشف حقيقة المنكرين له هو «**المنهج النفسي التجريبي حيث يجري عليهم تجربة نفسية تتلخص في أن نأخذ بعض الملاحدة في قارب صغير في بحر لجي حيث يوشك القارب أن يغرق بهم بشرط أن تكون التجربة دون علم هؤلاء الملاحدة، ثم علينا بعد ذلك أن نسجل مشاهداتنا وملاحظاتنا عن سلوكهم حيال هذا الخطر على حياتهم، وسنرى هل**

---

(١) انظر: العقيدة في الله (ص ٥٧، ٥٨) الدكتور عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح الكويت سنة ١٩٨٤م.

سيتوجهون إلى الأرض أم السماء؟ وهل سيدعون البحر أم رب البحر وخالقه؟ وعلينا أن نسألهم بعد ذلك من أين لهم هذا الإيمان دون مناظرة أو مجادلة؟ إن القرآن الكريم يخبرنا أنهم في تلك اللحظة لا يؤمنون فقط بوجود الله ولكن بأنه الواحد الأحد القادر، ونحن نتحدى ملاحدة هذا العصر أن يقيموا هذه التجربة بشرط أن يتحلوا بالأمانة والحياد والرغبة في الوصول إلى الحق والحقيقة»[(١)].

وصدق الله العظيم حين قال: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء :٦٧] .

وأخيرًا نأتي إلى النقطة الثالثة من الشبهة الأولى وهي:

صفات الله ثم المادة:

الحق الذي ظهر للباحث أن الماديين حين كفروا بالله آمنوا بالمادة وفعلوا مع المادة مثلما يفعل المؤمنون مع الله.

فإذا كان المؤمن يؤمن بقوة غيبية لا ترى، هذه القوة هي الله، فإن الماديين يؤمنون أيضًا بقوة غيبية لا ترى وهم مضطرون إلى ذلك فما القانون العلمي والقوة والحركة والزمن والأزلي والأبدي إلا مفاهيم لا تخضع للحس والمشاهدة ومع ذلك لا يجرؤ أحد من الماديين أن ينكرها وإلا لكان علمه ساذجًا ولاتَّهمه زملاؤه بالسطحية.

يقول الأستاذ وحيد الدين خان: «**إن أي عالم من علماء عصرنا لا يستطيع أن يخطو دون الاعتماد على ألفاظ مثل القوة: Force الطاقة: Energy الطبيعة: Nature وقانون الطبيعة: low of nature . وما إلى ذلك ، ولكن هذا العالم لا يدري ما القوة والطاقة والطبيعة وقانونها، فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة لكي يبين عللًا غير معلومة وهذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الألفاظ تمامًا كرجل الدين لا يستطيع تفسير صفات الإله وكلاهما يؤمن بدوره بعلل غير معلومة**»[(٢)]. وإذا

(١) انظر: بتصرف القضاء والقدر في الإسلام (١/٩٩- ١٠١) دار الدعوة الإسكندرية.

(٢) الإسلام يتحدى (ص ٤٢)، وانظر: الله يتجلى في عصر العلم (ص ١٨).

تتبعنا الماديين في كثير جدًا من المواقف نجد أنهم لا يختلفون عن المؤمنين في مواقفهم فإن عندهم إيمانًا بل وعندهم إلهام داخلي.

يقول الدكتور كونانت: «**أعظم الفروض التمهيدية الكبرى التي جاء بها تاريخ العلم نشأت نتيجة لعملية ذهنية يعبر عنها أحيانًا بأنها (مسة من عبقرية) أو (خاطرة ملهمة) أو (ومضة من خيال باهر) وقلما يتبين فيها الناظر أنها كانت نتيجة لتمحيص النتائج كلها أو تحليل منطقي لها أو محاولة منظمة لصياغتها أدَّت إلى ما انتهى إليه صاحبها**»[١].

ونستطيع أن نقول بدون تجاوز للحقيقة: إن المؤمن كما يعبد الله، ويتوجه إليه فإن المادي يعبد المادة ويتوجه إليها، لا فرق بين القدامى والمحدثين، فإن «**الشهرستاني**» وصف المادة بأنها معبود الدهريين [٢]. وكما يعتقد المؤمن في الرسل فإن المادي يعتقد في الفلاسفة الماديين الذين صاغوا مذهبه، وكما أن المؤمن له كتاب مقدس فإن المادي له أيضًا كتب مقدسة تتمثل في المؤلفات المادية [٣]، وكما أن المسلم يصلي ويعبد الله فإن الماديين يفعلون ذلك كما في معابد أم البشرية [٤]، وكما أن المسلم يذهب إلى بيت الله الحرام، فإن الماديين يطوفون حول قبور زعمائهم كما يحدث في الاتحاد السوفيتي [٥].

العبادة لله لا للمادة:

يتفق المؤمنون والماديون كل فيما يعتقد: أن ظواهر العلم متغيرة وأن كل

---

(١) مواقف حاسمة (ص ٨٢) نقلاً عن الدكتور يحيى هاشم، في مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٧٠- ٧١).

(٢) انظر: نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ١٢٦).

(٣) انظر: للأهمية العلم والدين في الفلسفة المعاصرة (ص ٥٠- ٥٣).

(٤) انظر مجلة أكتوبر بتاريخ ١٩٧٧/١١/١٣ نقلاً عن: في مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٢٢٣).

(٥) في مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٢٢٦).

متغير له أصل صدر عنه، وظواهر العالم لها أصل تتغير عنه وهذا متفق عليه ، ولكن الكلام في هذا الأصل، هل وجوده لذاته أو لغيره؟ المؤمنون يقولون إن أصل الكون وهو الله وجوده لذاته، والماديون يقولون المادة التي صدر عنها الكون وجودها لذاتها. والمؤمنون يجمعون على أن الله ذو سلطان لا راد لأمره تخضع له حركة الأشياء والماديون يقولون ذلك أيضًا بالنسبة للمادة.

والسؤال الذي يطرح للمؤمن والمادي هو:

هل هذا الأصل من جنس العالم الذي نعرفه أو ليس من جنسه؟

الماديون يقولون: إنه من جنس هذا العالم؛ لأنهم لا يعترفون بغير المادة، والمؤمنون يقولون: إنه ليس من جنس هذا العالم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى :١١] .

والماديون يقعون في التناقض حين يقولون إن أصل العالم من جنس العالم للآتي:

١- لأن القول بأنه من جنس هذا العالم المادي يقتضي كونه جزءًا منه، والقول بأنه أصل العالم يقتضي كونه غيره وهذا تناقض.

٢- ولأن القول بأنه من جنس هذا العالم يقتضي كونه ذا بداية لأن ما هو من جنس العالم له بداية كما أثبتت النظريات العلمية وهم يقولون بأزليته.

٣- ولأن القول بأنه من جنس هذا العالم المادي يقتضي كونه فانيًا لأن ما هو من هذا العالم يفنى وهم قد قالوا بخلوده.

ولا يقال إننا نريد بالأصل المادة من حيث هي مادة، وهي عندنا (أي الماديين) واجبة لا نهائية أبدية أزلية فلم نقع في التناقض.

ونحن نقول للماديين إن ما تقولونه عن المادة المتصفة بما تقدم يخرجها عن كونها من جنس هذا العالم المادي الذي نعرفه؛ لأن ما نعرفه من هذا

العالم المادي إنما هو أفراد فنعرفه ممكن الوجود منتهيًا له بداية وله نهاية.

فما السبيل إلى معرفتكم المادة المطلقة التي وصفتموها بالأزلية والأبدية وهي من جنس العالم المادي الذي نعرفه.

ولذلك فأنتم تقولون بشيء ليس من جنس العالم وإن سميتموه مادة فهو خارج عنها غير متصف بصفاتها (١).

وبعد تلك المقارنة نخلص إلى أن المؤمنين يعبدون إلهًا حقًّا متصفًا بصفات الجلال والكمال.

أما الماديون فيشركون مع الله غيره حين يتخذون المادة إلهًا وهم في ذلك إنما يعبدون هواهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية :٢٣-٢٤] .

إن الله عز وجل يرسم صورة للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت الذي يحركها وتشعر به وهو الله ، ثم تتعبد للهوى وتخضع له وتقيمه إلهًا قاهرًا لها مستوليًا عليها ، إن القرآن الكريم يعجب من هذا الذي اتخذ إلهه هواه بعد معرفته للحق الذي كان ينبغي أن يصده عما اتخذه من دون الله ولكن؛ لأنه لم يرعوى لهدى الله فإنه استحق الإضلال من الله وتركه في عمايته ، ولذلك ختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة (٢).

فمهما قدمت له الأدلة والبراهين فلن يهتدي لأنه رفض هداية الله بداية فاستحق الجزاء على ذلك الرفض ، وكأن تلك الآية يقرؤها الإنسان للمرة الأولى وهو يرى التطابق بين الفكر المادي وأصحابه والتوصيف الدقيق لهم من الله في هذه الآية الفذة الفريدة ولا يملك الإنسان إلا أن يقول سبحان من أنزل القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين وخسارا وبعدا للظالمين الذين حجبوا أنفسهم عن التعرض لهداية الله وتوفيقه.

---

(١) انظر: في مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٢٣٨- ٢٤٠) بتصرف.

(٢) انظر: ظلال القرآن (٥/٣٢٣٠- ٣٢٣١).

القائلون بالصدفة في خلق العالم والرد عليهم

الشبهة الثانية: القول بالصدفة

لقد وجد قديمًا في فلاسفة اليونان من ذهب إلى أن الحياة نشأت اتفاقا دون أي غائية أو علة خارجية وبنى العالم على الاتفاق والمصادفة [١].

وهذا بعينه ما وجد عند الدهريين الذين ذهبوا إلى أن العالم كان في الأزل أجزاء مبثوثة تتحرك على استقامة فاصطكت اتفاقا فحصل عنها العالم الذي نراه [٢].

وإذا كان القدامى من الماديين والدهريين قد ذهبوا إلى هذا القول فإن كثيرا من الماديين المحدثين ذهبوا إلى القول بالصدفة لئلا يفسروا الكون بخالق، من هؤلاء «**أرنست هكل**» الذي ذهب إلى أن المادة هي الموجد الضروري للحياة وأن الحياة ترجع إلى أصل واحد هو «**المونيرا**» التي تركبت اتفاقا من «**الأزوت والهيدروجين والأكسجين**» ومنها تكونت الحياة [٣].

ووصل الثقة بالصدفة وما ينتج عنها أن زعم « **هكسلي**» بأنه «**لو جلست ستة من القرود على آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد (شكسبير) فكذلك كل الكون الآن نتيجة لعمليات عمياء تدور في المادة لبلايين السنين**» [٤].

بل وصل الأمر إلى ابعد من ذلك حين زعم «**هكل**» [٥] عالم البيولوجيا أنه

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية (ص ٤٠).

(٢) مفيد العموم ومبيد الهموم للخوارزمي (ص ١٠٦).

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة (ص ٤٠٠).

(٤) الإسلام يتحدى (ص ٦٥)، وانظر: الله من الفطرة والدليل (ص ٦٠) الشيخ محمد حسن آل ياسين (ص ٦٠).

(٥) أستاذ علم الحيوان بجامعة فيينا ١٨٣٤- ١٩١٩.

قادر على خلق الإنسان يقول : **«ائتوني بالهواء وبالماء وبالأجزاء الكيماوية وبالوقت وسأخلق الإنسان»** [١].

ويلخص الفيلسوف «**برتراند رسل**» تاريخ البشرية كلها في القول بالصدفة فيقول : **«ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير إن نشأته وحياته وآماله ومخاوفه وعواطفه وعقائده ليست إلا نتيجة اجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة»** [٢].

كانت هذه هي شبه القائلين بالصدفة وهذه الشبهه لا تخرج في مضمونها عن الشبه الأولى اللهم إلا في الشكل فقط ولكن المضمون واحد .

وسنحاول أن نفند تلك الشبهات مرتكزين على القرآن الكريم مستخرجين منه الأدلة الباهرة التي تبطل القول بالصدفة عن طريق ما أودعه الله في الكون والإنسان والحيوان والنبات من قصد وتدبير مستأنسين بمفهوم العلماء حول إبداع الله في هذه الأشياء مستعينين في الوقت نفسه بما قرره العلماء المحدثين من نتائج العلم الحديث حول ما نستشهد به من نماذج.

إن القرآن الكريم فيه من الدلائل التي تضيف إلى الخلق والإبداع العناية والقصد في الكون بأسره من شمس وقمر وجبال وأنهار وإنسان وحيوان ونبات ، لأن كل مخلوق خلقه الله إنما خلقه لغاية وخلقه بقدر ، وإن غاب عن المخلوقين فلا يغيب عن الخالق جل في علاه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر :٤٩] .

وسنحاول عرض نماذج من الآيات التي تتحدث عن الكون وما فيه من ليل ونهار وشمس وقمر وكذلك للآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان والعناية به، ثم خلق الحيوان ثم خلق النبات .

---

(١) الاسلام يتحدى، (ص ٧٠)